



سقراط

تأليف

الفروید و لرونيل

راجعه

الاکونزکی غیبی محمد

ترجمه

مکرم خلیل
محمد زید

56

حقوق

مليتم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعها
القاهرة - مصر

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

سقراط

تأليف

الفروادو روبرتو

راجعه

الدكتور زكي نجيب محمود

ترجمه

محمد خليل

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
مصر

١٩٦٢

هذه ترجمة كتاب

SOCRATES

تأليف

A. E. Taylor

فهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : تمهيد	١
الفصل الثاني : المراحل الأولى من حياة سقراط	٢٤
الفصل الثالث : المرحلة الأخيرة من حياة سقراط	
— محاكمته وموته	٧١
الفصل الرابع : <u>فكر سقراط</u>	١٠٨

مقدمة

بقلم الدكتور زكى نجيب محمود

مؤلف هذا الكتاب هو ألفرد إدوارد تيلر (١٨٦٩ - ١٩٤٥) وقد كان أستاذا للفلسفة في الجامعات البريطانية ؛ بدأ حياته العلمية في جامعة أكسفورد ، ذاهبا عندئذ مذهب المثاليين في الفلسفة ، على نمط المثالية التي أخذ بها ف. ه. برادلي - وكان برادلي حينئذ زميلا ، في نفس الكلية التي بدأ بها تيلر حياته العلمية في أكسفورد وهي مثالية تقوم أساسا على مبادئ هيجل ، لكنها تغيرت فيها بعض الشيء لتصبح وكأنها مذهب جديد يتناسب مع معتنقيه من فلاسفة الإنجليز في أواخر القرن التاسع عشر ؛ وهو نفسه المذهب الذي اعتنقه بادي* ذي بدء « مور » و « رسل » ، ثم خرجا عليه بفلسفتيما التحليلية الجديدة ، وأهم ما أخرجه تيلر في تلك المرحلة الأولى من حياته العلمية كتابا « مشكلة السلوك » و « مقومات الميتافيزيقا » ، وهما كتابان ينزعان النزعة المثالية التي أسلفنا ذكرها .

وغادر تيلر جامعة أكسفورد وهو ما يزال في صدر رجولته وفي أوائل سيرته ، غادرها ليقضى بقية حياته العلمية أستاذا للفلسفة الخلقية في جامعة سنت أندروز أولا ، ثم في جامعة أدنبره ثانيا (وكتلماهما في

استكتلننده) ؛ وهو لم يكند يغادر أ كسفورد حتى غادر معها تبعيته الفلسفية
إبرادلى ، واصطنع لنفسه انجهاها يقيم أسسه على ركائز من فلسفة أفلاطون
ومن العقيدة المسيحية معا ؛ وإنه ليقرر فى كتابه « عقيدة فيلسوف أخلاقى ،
(وهو كتاب يضم سلسلة محاضراته التى ألقاها فى مجموعة « محاضرات
جيفورد ») إنه يقرر فى كتابه هذا أن معرفتنا الأخلاقية إذا حللناها
ألفينها تنطوى بالضرورة على اعتراف ضمنى بوجود الله الذى يوجه
الكون توجيها يوصله إلى غاية أخلاقية وإلى خلود النفس البشرية .

على أن أهم ما يعرف به تيلر فى ميدان الفلسفة هو أستاذيته فى فلسفة
أفلاطون ، وهى أستاذية تعمق صاحبها فى البحث والدرس تعمقا يفكر
أن تجمل له فى الباحثين ضربيا ؛ فهو باحث أكثر منه فيلسوفا أصيلا
ذا مذهب خاص ؛ وبينما هو مشغول ببحوثه تلك إبان مقامه فى سنت
أندروز ، خرج على العالم برأى اشترك فيه مع بيرنت ، ولقد أطلق عليه
بعدئذ اسم « زندقة بيرنت وتيلر » ، إشارة إلى أنهما قد خرجا برأيهما ذلك
على السائد بين الباحثين (وكان بيرنت عندئذ هو أستاذ اللغة اليونانية فى
جامعة سنت أندروز) وذلك أن بيرنت وتيلر قد زعما أن المحاورات
الأفلاطونية لا يجوز أن تحسب معبرة عن آراء أفلاطون نفسه ، إذ
الرأى الشائع عنها هو أن أفلاطون قد أجرى على لسان سقراط فيها
ما هو فى الحقيقة آراء أفلاطون ، كأنما سقراط فى تلك المحاورات لا يزيد
على وسيلة دراسية فنية استخدمها المؤلف ليجعل منها قناعا يتستر وراءه ؛
وحقيقة الأمر — عند بيرنت وتيلر أن أفلاطون قد سجل فى محاوراته

حقيقة الواقع التاريخي ، فما يقوله سقراط في سياق هذه المحاورات هو بعينه ما قاله سقراط فعلاً — من حيث المضمون الفكري للرأى المساق — وليس هو بالقول المستعار له من عند مؤلف المحاورات ؛ وهذا تكون المحاورات الأفلاطونية وثيقة تاريخية تثبت الواقع وتصور الأشخاص بمذاهبهم الفعلية وآرائهم الحقيقية كما قد عرفهم القرن الخامس قبل الميلاد . نعم إن « زندقة بيرنت وتيلر » ، هذه التي خرجا بها على الشائع المؤلف لم يأخذ بها كثيرون بعدهما ، لسكنها كانت ذات أثر بالغ في توجيه الدراسات الأكاديمية في التراث الأفلاطوني ، واسننا نعرف من المؤلفات التي بسط بها أصحابها زبدة الفلسفة الأفلاطونية ما يفصل كتاب تيلر الذي أسماه « أفلاطون — الرجل ومؤلفاته » .

وهذا الكتاب الصغير الذي تقدمه اليوم إلى القراء ، والذي صدر أول ما صدر سنة ١٩٣٣ ، هو مثل من دقة البحث العلمي في مجال الدراسات الفلسفية ، فهو ليس بالسياق الذي يستطرد فيه صاحبه ليمتع القارئ بطلاوة الحديث ، مهما يكن في هذه الطلاوة من تضحية بالحقائق العلمية والتحقيقات المتمثلة المتأنية ، فما إلى ذلك قصد تيلر بكتابة هذا ، ولسكنه قصد إلى رسم صورة سقراط رسماً جديداً يخالف ما قد جرى به العرف عنه ، وهو إذ يعيد رسم الصورة لا يندفع وراء الجديد لمجرد كونه جديداً ، بل تراه يتناول المصادر الأولية فيشرّحها تشرّحاً ويحللها تحليلاً ، ويوازن ويقارن ، حتى تخلص له الصورة الصادقة منسقة سليمة من التناقض ؛ فالأمر في رسم صورة عن سقراط متروك على كل حال لقدرة

اللياحث على التفسير والتأويل ، لأن سقراط نفسه لم يترك لنا سجلاً عن أفكاره وأعماله ، فلم يكن الأنثيون الذين عاشوا في عصره — عصر بركليز العظيم — يؤلفون الكتب ، إذ كان الأدب المعروف عندئذ هو أدب المسرحية لا أدب الكتابة النثرية المرسلة ؛ فلا عجب ألا يكون بين أيدينا اليوم أثر نثرى واحد مما قد كُتب عن سقراط في حياة سقراط نفسه — سواء كان هو الكاتب عن نفسه أو كان غيره هو الكاتب عنه — حتى بلغ السابعة والأربعين من عمره أو جاوزها ، وعندئذ فقط اتخذ منه أديب مسرحى معاصره — هو أرسطوفان — موضوعاً للمهانة الساخرة ، السحاب ، فأصبحت هذه المسرحية هي الوثيقة الوحيدة التي ذكرت شيئاً عنه في تاريخ يسبق عام وفاته .

لكن فيلسوفنا لم يكذب يفارق الحياة بعد محاكمته وسجنه ، حتى نهضت طائفة من تلاميذه وأتباعه وعبيده لتكتب في ذكره ، نصف شخصيته وتسجل عاوراته ؛ ولقد بددت الأيام أكثر هذه الآثار ، وما أبقى سوى القليل . ومن حسن الحظ أن يكون بين هذا القليل النادر سلسلة رائعة من المحاورات التي أنشأها أفلاطون وجعل سقراط شخصيتها الرئيسية ، وكذلك كتاب ، الذكريات ، من تأليف زينون ، دقاًط عن « الاستاذ » ، وآثار قليلة أخرى ؛ وتلك هي المصادر الأصلية لآي بحث أصيل يكتب عن سقراط ؛ فإذا تذكرنا حقيقة هامة هي أن هؤلاء الذين تصدوا لكتابة ذكرياتهم عن سقراط كانوا يصغرونه بفترة طويلة ، فأفلاطون يصغره بثلاثة وأربعين عاماً ، وزيتون يصغره

أفلاطون يضع سنوات ، تبين لنا في وضوح أن كل ما يذكر عن حياة سقراط — وبخاصة في مراحلها الأولى — إنما هو من إملاء الذاكرة. يعد أن مضى على الأصل المذكور نصف قرن من الزمان على أقل تقدير.

فلا مناص — إذن — لمن يؤلف عن سقراط ، من الاعتماد على قوة تأويله للوثائق الباقية ، ولا يفاضل بين تأويل وتأويل إلا في مدى اتساق العناصر في كل منهما ؛ وفي هذا الكتاب الذي تقدمه إلى القارئ العربي اليوم أحد التأويلات لتلك الشخصية الفلسفية الفذة ، وهو تأويل نتج عن دراسة دقيقة وعميقة جادة ، قام بها أستاذ للفلسفة مشهود له بالكفاءة العلمية النادرة ، وقد تولى نقله إلى العربية الأستاذ محمد بسكير تحليل كبير مفتش الفلسفة في وزارة التربية والتعليم بالقاهرة ، فجاءت ترجمته صورة أمينة دقيقة واضحة ، وستصبح إضافة كبيرة الشأن إلى المكتبة الفلسفية العربية .

١٨ أكتوبر ١٩٦١

زكي نجيب محمود

الفصل الأول

تمهيد

إن ترجمة حياة الرجل العظيم ، وخاصة حين يكون من أبناء عصر غابر ، لا يمكن أن تكون مجرد تسجيل للحقيقة لا جدال فيها . وحتى حين تتوفر مثل هذه الحقائق ، فإن مهمة المترجم الحقيقية تنصرف إلى تفسيرها ، إذ عليه أن ينفذ إلى ما وراء الأحداث المجردة ليقين ما تكشف عنه من هدف وطابع . ولن يتمكن من ذلك إلا بمجد خياله الإنشائي .

وفي حياة الشخصيتين التاريخيتين اللتين كان لهما في حياة البشر أثر عميق — وهما عيسى وسقراط — نجد أن الحقائق التي لا تقبل الجدل نادرة بصورة استثنائية . وربما كانت هناك حقيقة واحدة عن كل منهما لا يستطيع أحد أن ينكرها دون أن يسقط حقه في أن يحسب من العقلاء . فمن المؤكد أن عيسى « قد عذب في حكم ييلاطس البنطي ، ولا يقل عن ذلك ثبوتاً أن سقراط قد أعدم في أثينا بتهمة عدم التقوى والصلاح » . في عام لاخس ، (٣٩٩ ق . م .) وكل بيان عن أحدهما يتجاوز هاتين العبارتين لا يعدو أن يكون من قبيل التكوين الشخصي البحث . ومن ثم فلا بد من التقديم لهذا العرض السريع المتواضع ، ببعض الملاحظات عن المصادر التي استقى منها المؤلف المساعدة التي استخدمها في تكوينه للوضوع ، والاسس التي استرشد بها في استخدام هذه المادة .

أما سقراط نفسه فلم يترك لنا سجلاً عن أفكاره أو أعماله . وكان ذلك نتيجة مباشرة لطبيعة المجتمع الذى عاش فيه . وقد كان سقراط بمولده ونشأته رجلاً من أبناء عصر عظيم - عصر بركليس ، وإن كانت الفترة من حياته التى نعلم عنها أكثر ما نعلم ، وهى فترة شيخوخته ، قد امتدت فى زمن يفاير زمن صباه ويقل عنه سعادة . والواقع أنه كان رجلاً فى الأربعين من عمره يوم وفاة ذلك السياسى القدير . ولم يكن الآثينيون الذين عاشوا فى تلك الأيام العظيمة يؤمنون بالكتب ، فقد كان العصر عصر المسرحيات المحزنة ، ولكنه لم يكن عصر الأدب الثرى . ذلك هو السبب فى أننا لا نملك تدويناً معاصراً لآى مما قاله أو فعله سقراط حتى قارب الخمسين من عمره - فيما عدا إشارة واحدة مفيدة ، وإن كانت لا ترقى إلى مرتبة اليقين القاطع . ذلك أنه كان قد بلغ السابعة والأربعين أو جاوزها حينما اختبره كل من الشعارين الهزليين الشهيرين . أرسطوفانيس Aristophanes ، وأميبيس Amipsies - لأمر ما - هدفاً للمسرحيتين الهزائيتين الساخرتين لسنة ٤٢٣ ق . م . وتبعهما فى ذلك مؤلف هنلى ثالث يدعى يوبوليس Eupolis بعد عامين ، فما تزال بين أيدينا الصورة الهزلية الباهرة ، مسرحية السحب ، لأرسطوفانيس ، وإن كانت النسخة التى لدينا ربما قد جرى عليها بعض التعديل من قلم المؤلف ، وهى الوثيقة الوحيدة التى نتحدث عن سقراط فى تاريخ يسبق عام وفاته . وقد أدى الأثر العميق الذى تركته محاكمة الفيلسوف ووفاته إلى أن تبرز إلى الوجود فى الحال طائفة كبيرة من المؤلفات ، أراد بها الشبان

الذين وقعوا تحت تأثيره أن يحفظوا ذكره بوصف شخصيته وتسجيل
مخاوراته . على أن الكثير من هذه المادة قد فقد ، ولكننا ما نزال نملك
تلك السلسلة الرائعة من المحاورات التي جعل أفلاطون الشخصية الرئيسية
فيها شخصية سقراط ، وكتاب ذكريات ، الذي ألفه كسينوفون Xenophon
دفاعاً عن الأستاذ ، ومؤلفاً أصغر منه أو مؤلفين من تأليفه كذلك في
الغرض ذاته ، بالإضافة إلى صفحات قليلة من محاورات سقراط كتبها ثالث
من المعاصرين هو إيسخينيس الأسفيتوسي Aeschines of Sphettus
وهذه بطبيعة الحال هي المصادر الرئيسية لأى موضوع يكتب عن
الفيلسوف . والمشكلة هي في معرفة الطريقة المثلى لتناول هذه المصادر .
فن المهم أن نذكر أن الكتاب الثلاثة جميعاً كانوا أصغر سناً من بطليم
بكثير . فقد كان أفلاطون يصغر سقراط بثلاث وأربعين سنة تقريباً ،
ويكاد يكون من المؤكد أن زينوفون كان يصغر أفلاطون ببضع سنوات .
ومع أننا لا نملك تواريخ محددة لاسكينس إلا أنه لا بد أن يكون معاصراً
لزميله على وجه التقريب (١) .

(١) ولد سقراط سنة ٤٦٩ ق . م . أو ما قبلها ، وأفلاطون سنة ٤٢٨/٧ . وقد كان
زينوفون يعتقد أن شدة حداته قد أجهزته مجزاً بالناً حين اختير واحداً من القواد في انسحاب
الشرطة آلاف (أنا باسيس Anabasis ٣ - ١ ، ٢٥) ومن ثم لا يكون من المحتمل
أن يكون قد ولد قبل سنة ٤٢٦/٢٥ على وجه التقريب . وقد ذكر أفلاطون أسكينس
(محاوره الدفاع ٤٣) على اعتبار أنه شاب صغير ربما كان أبوه قد دعى للشهادة أمام الهيئة
التي وجهت الاتهام لسقراط ، إذ كانت هذه الهيئة قد ظنت حقاً أن سقراط قد أفسد ولده .
وقد كان هو الوحيد من بين الثلاثة الذي شهد مقتل سقراط (فيدون ٥٩ ب) فقد
كان أفلاطون مريضاً وكان زينوفون في « مكان ما من آسيا »

وعلى ذلك فليس من بين الثلاثة من يمكن أن تكون لديه ذكريات موثوق بها عن سقراط كما كان قبل الخامسة والخمسين ، وحين يحدوثنا بشيء عن حياته الأولى أو المبكرة فلن يكون ذلك عن علم أصيل^(١) .

ولا تظهر التراجم كلون من الأدب معترف به بين الإغريق إلا في القرن الثالث ق . م (٣٠٠ — ٢٠٠ ق . م) من حيث هي خاصة من خصائص عصر الإسكندرية . وكان الفلاسفة ، كالشعراء ، قد أصبحوا في ذلك العهد موضوعات تثير شغف الجمهور القارى ، وقد انبرى أكثر من واحد من الكتاب لإرضاء هذا الشغف في نفوس القراء . وقد ضاعت الكتب التي ألغت على هذا النحو ، ولكن مادتها بقيت لنا في كتاب « سير الفلاسفة » ، الذي يحمل اسم ديوجينيس لايرتيوس Diogenes Laertius الذي لا يعرف عنه أحد شيئاً في خلاف هذا الموضوع ، ويرجع تاريخ الكتاب في صورته النهائية إلى حوالى سنة ٢٠٠ م وما ذكر في هذا المؤلف عن سقراط هو الهيكل الرئيسى للمادة التي كانت معروفة في هذا الموضوع ظناً أو يقيناً لدى رجال الأدب الذين عاشوا في عهد البطالمة أو بعده . ولاشك أنه احتفظ لنا بمادة في غاية الأهمية تدعمها أسماء المؤلفين القدامى الذين يشهدون بصحتها . ولكن كتاب السير في

(١) ومن ثم فحين يحدثننا أفلاطون في محاورته تيائيتوس Theaitetus عن الأثر الذي انطبع في نفس سقراط من البطل الشاب المذكور في المحاورته (والذي أصبح فيما بعد أبرز الرياضيين في الأكاديمية) فهو يكتب عن أشياء يعرفها معرفة وثيقة . أما حين يصف مقابلة سقراط في شبابه لبارمينيدس Parmenides وزينون Zeno فهو يبالغ أحسن ما يرجع تاريخها إلى أكثر من عشرين سنة قبل مولده .

عصر الإسكندرية كانت تعوزهم المعايير الصحيحة للنقد والتحليل . ولم يكن الجمهور الذى يكتبون له يطلب الدقة بقدر ما يطلب القصص المثيرة والفضائح والحكايات التى تنسم بسرعة البديهة ، وكان على الكاتب أن يدرس ذوق جمهوره . أضف إلى ذلك أن المؤلف فى هذا العصر لم يكن فى وضع ملائم يمكنه من التثبت من الحقائق الخاصة بحياة رجل أثينى من أبناء القرن الخامس (قبل الميلاد) . فالمادة أمامه ضئيلة ، ويتألف معظمها من إشارات عابرة غير مشروحة ، وكثيرا ما تكون فكاهات محلية فى إحدى المزيليات ، لا يقل غموضها بالنسبة لأبناء عصر الإسكندرية عما هو بالنسبة إلينا ، ولا يجوز أن نتوقع من التراجم المصنفة فى ظروف كهذه أن تلقى كثيرا من الضوء على شخصية أى إنسان ، وبخاصة على شخصية رجل كان - مثل الدكتور جونسون - قد بدأ يصبح فى أثناء حياته محورا لأسطورة . وعلى ذلك فليس أمائنا حين نتحرى الحقيقة إلا أن نعتد اعتمادا يكاد يكون تاما على ما يقصه علينا من أخبار سقراط ، أولئك الذين كان فى وسعهم أن يتحدثوا عن معرفة مباشرة ، أى أن نعتد بصفة أساسية على أرسطوفانيس وأفلاطون وزيנוفون .

إلى أى حد نستطيع أن نتق فى أن هذه الصورة التى يقدمها أحد هؤلاء الكتاب أو جميعهم تصدق على سقراط ، إنه لو صدقت فظريات معينة شاعت فى القرن التاسع عشر ، لكان من الخطئ أن نصدق أحدا منهم . مثل ذلك قولهم إن أرسطوفانيس شاعر هزلى وليست مهمته أن يقول الحق بل أن يهزله . والفروق القائمة بين صورة سقراط كما رسمها ، وصورته

التي يقدمها لنا كل من زينوفون وأفلاطون ، من « البروز » بحيث لا نستطيع أن نأخذها على أنها جميعها صورة لأصل واحد . فإما أن الشاعر وجمهوره لم يكونا يعرفان شيئاً عن بطل مسرحيته البارز ، أو أن الغرض الذي يهدف إليه كان شيئاً آخر غير التصوير الهزلي الناجح لشخصيته . أى أنه لا بد أن مسرحيته لم تكن موجهة لفرد من الأفراد ، وإنما « لحركة » معينة ، وينبغي حينئذ أن نتصور سقراطه مثل « طرطوف » ، موآبير ، على أنه مجرد نموذج خيالي ، ألصق به اسم شخص معين من المعاصرين دون أن يفكر هل أخطأ أو كان على حق في هذا الاختيار . وقد توفرت لأفلاطون دون شك المعرفة الوثيقة والمواهب الفنية التي تؤهله لرسم صورة صادقة حية . ولكن كان الاعتقاد السائد أن هدفه لم يكن تصوير الشخصيات ، بل كان سقراط الذي صور له لنا إما تعبيراً عن صورة خيالية تصف لنا ما يجب أن يكون عليه الفيلسوف العظيم ، وإما فتاعاً يحتفى وراءه . وكان يُظن أن ذلك يمكن إثباته عن طريق التباين المزهوم بين تصوير أفلاطون وتصوير زينوفون .

فسقراط — الذي يصوره لنا زينوفون — معلم ممتاز ، وإن تسكن طريقة تلمذه إلى حد ما ، فهو يدهو إلى أخلاق طيبة في متناول الإدراك الفطري ، وهو شديد النفور من التأملات التي لا تصدق على الواقع المادى والعلم غير النافع ^(١) . أما « سقراط » أفلاطون فهو رجل مرح وفيلسوف

(١) سئى على الرغم من ذلك أن الأقوال الشائعة في هذه النقطة تتجاهل فقرات معينة ذات دلالة عظيمة من كلام زينوفون نفسه .

عظيم ، له معتقدات عميقة فيما وراء الطبيعة ومعرفته واسعة بأعلى مراتب العلم في عصره . ومن ثم ظنَّ بأن العبقرية والفصاحة والميتافيزيقا قد أفحمهما أفلاطون في الصورة من عنده ، وأنهما عرض مقنع لروح أفلاطون^(١) . ومن ثم كان الاستدلال المبدئى هو أن الطريقة الصحيحة لاستخلاص الحقائق التاريخية عن سقراط أن نؤمن بصديق تصوير زينوفون ، ونأخذ من أقواله وسيلة للربط بالشخصية العظيمة التى رسمها محاولات أفلاطون إلى نسب يرتضيها العرف . ذلك أن «سقراط التاريخى الحقيقى» هو الذى توفرت لكتاب القرن التاسع عشر معرفة كبيرة به ، يعنى فى الحقيقة «سقراط» أفلاطون بعد تجزيده من العبقرية . ومع ذلك فإننا حين نلتمق فى البحث يتضح لنا أن هناك أسباباً وجمية تزعم ثقتنا بكفافية زينوفون نفسه من حيث هو شاهد عدل فى الموضوع . فليس فى كتاباته ما يدل على أنه كان فى وقت من الأوقات وثيق الصلة بسقراط . ويبدو من المؤكد أنه لم يكن ليتجاوز الرابعة والعشرين من عمره — حين رأى «الاستاذ» للمرة الأخيرة^(٢) وعلى أية حال فقد كان

(١) قد كان يتقد بصفة خاصة — وما زال هذا اعتماد الفريق الأكبر من المفكرين — أن نظرية مثل الماثوثة تعاليمها فى محاورتى فيدون والجمهورية لابد أن يكون أفلاطون قد ابتدعها بنفسه بعد وفاة سقراط ، وقبل تأليف فيدون . وإذا كانت المحاورة تمثل سقراط يوم موته يتحدث عن هذه النظرية بوصفها نظرية قد اعتنقها منذ شبابه ، فإن نظرية كهذه — لو صدقت — لكان مؤداها أن أفلاطون شخص لا يوثق به إطلاقاً فى أى شىء يحدتنا به عن سقراط .

(٢) من المؤكد أن زينوفون لم ير سقراط قط بعد رحيله من أثينا سنة ٤٠١ ايشترك فى حملة الأمير قورش بل إننا لا «نعلم» لأن كانت قد رجع إلى أثينا بعد ذلك قبل ثمانية سنة ٣٩٤ . وربما أمكننا أن نستدل على عدم وثاقة صلته بسقراط من أن ذكره لم يرد قط =

بعيداً في آسيا حين حوكم سقراط وأدين ، ولا بد أن كتاباته عن سقراط قد ألقت في فترات مختلفة بعد عودته إلى اليونان ، حين كان يعيش منفياً من أثينا ، لا تكاد تواتيه الفرصة للرجوع إلى غيره من الأحياء من أعضاء حلقة سقراط . وفي بعض هذه الكتب يتحدث بكثيرنا إلى حد بالغ حين ينسب إلى سقراط الذي اشتهر بحبه للمدينة ، حبه هو العميق للزراعة وحياة الريف وثمة واحدة من أبرز مؤلفاته — تلك المسماة « ذكريات Memorabilia » ، قد تضمنت قيمتها إلى أقصى حد بسبب دفاعها عنه دفاعاً صريحاً . كذلك أشير إلى ما يعبر الاعتقاد بأن زينوفون قد أخرج ذكرياته — ذكريات ربما يعوزها التفصيل الكافي — باستخدام محاورات أفلاطون ذاتها مادة للصورة التي يرسمها ، وقد تعود على تمحيصها في وقت من الأوقات . وهذا يفسر لنا السبب الذي حداً بأكثر الباحثين الأوائل في مطلع القرن الحالى إلى الشك المطلق في إمكان الحصول على أية معرفة بسقراط الحقيقي ^(١) . ومثل هذا التشكك ، لا بد

== فحديث أفلاطون الذى يروى لنا الكثير عن أعضاء حلقة سقراط : ومن جهة أخرى نجد أن أسكنيس قماورد في محاورته أسبازيا Aspasia ذكر رجل يدعى زينوفون « ربنا » كان هو الكاتب الذى نحن بصدده ، وإن كان الباحثون قد وجدوا صعوبة في القول بأنه كان هو زينوفون نفسه ، وقد نشأت الصعوبة من أن زينوفون الذى ذكره أسكنيس شاب حدث متزوج بينما لا نملك دليلاً على أن كاتبنا قد تزوج في مثل هذا الوقت المبكر من حياته .

(١) لقد تحدث عنه ديبلز — وهو أبرزهم جميعاً — فلقبه « بالشخص المجهول » « نى » (والمصدر المباشر الذى أرجع إليه هذا القول هو رسالة لم تنشر من ديبلز إلى أحد الباحثين الإنجليز) وأحسب حساباً للفكرة التى تبخرت اليوم — والتي تقول إن ملاحظات أرسطو المرضية عن فسر سقراط يمكن استخدامها أداة لراجعة آراء زينوفون وأفلاطون عنه ، فقد كانت قد مضت ثلاثون عاماً على وفاة سقراط حين قدم أرسطو إلى أثينا أول مرة . وأعتقد ==

وأن يضع المؤرخ في مآزق عسير عليه الخروج منه، وليكتننا في سقراط تلك الحسن الحظ مخرجاً من هذا المآزق إذا عطينا بتفسير المصادر التاريخية القائمة على ضوئه بعض الأسس العامة الشديدة .

ولنبداً ببحث ما لشهادة أرسطوفانيس وإخوته المؤلفين الهزليين من قيمة . ولنذكر بادئ ذي بدء أن موضوع الهزلية الأثينية القديمة انصرف إلى مسخ الشخصيات — مسخاً لا يعنى السخرية — بنماذج من شخصيات اجتماعية معينة . كذلك كان من الأمور الأساسية لنجاح المؤلف الهزلي أن تعرض مسرحيته الساخرة لشخصية ساءت سمعتها عند الجمهور ، ومن ثم نستطيع أن نكون على يقين تام من أن سقراط حين تعرض لسخرية أرسطوفانيس كان قد أصبح شخصية معروفة ، وأن الشاعر علق أهمية كبرى على براعته في مسخ الصورة التي يقدمها بحيث تستطيع أن تستهوى أفئدة الجماهير . كذلك علينا أن نتذكر المبدأ العام الذي مؤداه أن الهزلية الناجحة ينبغي أن تعرض لفضيحة مشهورة ، أو أمر ما يُعتقد أنه كذلك^(١) . فلكي تستهوى أفئدة الجماهير يجب أن

= أنى برهنت كما برهن غيرى على أنه لا يقول شيئاً ذاقية عن الفيلسوف السالف إلا أن يكون قد تعلمه (ولا شك عندي و أنه تعلمه) من قراءته لمحاورات أفلاطون . (انظر كتابه ك. ريتز « المسمى سقراط » ص ٨٣) .

(١) لم تكن مسرحية « السحاب » ناجحة على المسرح ، ولو أننا نفهم من إشارات أفلاطون إليها في محاورته « الدفاع » أنها كانت قد نالت شهرة في نهاية حياة سقراط كنتاج أدبي . وليكتننا نستطيع أن ندرك السبب في فشلها على المسرح في أول الأمر مما يقوله أرسطوفانيس نفسه في النسخة الباقية بين أيدينا من المسرحية . وذلك أنها لم تكن تشتمل على شيء من مناظر الصخب أو مناظر العبادة .

تنصرف إلى مسخ شيء موجود بالفعل لا أن تكون مجرد اختراع من عند المكاتب الهزلية إلى آخره .

ونجد نتيجة لهذا أن أرسطوفانيس يجعل محور مسرحيته تصوير سقراط على أنه زعيم مدرسة أو مذهب نظامي أو شيء من هذا — مدرسة تجمع بين العلوم المسادية وما يصح أن نسميه : الروحانية ، وبالرغم من أنه من الحماقة أن نحكم على هذه الصورة استناداً إلى ما نقيده فيها لأول وهلة ، إلا أنه من الحماقة بنفس هذا القدر ألا نسأل أنفسنا ما هي الحقائق الأصلية التي تفسر الصورة الهزلية ، وما إذا كنا لا نستطيع أن نقيّن تلك الحقائق مرة أخرى من زاوية نظر أخرى في كتابات أفلاطون وزيغوفون .

وصحيح أيضاً أن هناك فارقاً واضحاً بين سقراط الذي تصوره مسرحية أرسطوفانيس مع تلاميذه ، في ندوة فكرية ، ، وسقراط ، أفلاطون (أوزيغوفون) الذي يتمثل لنا رجلاً صاحب رسالة ، يوجهها إلى كل من يستمع إليه ، ولسكتا حين نذكر أن أرسطوفانيس كان يتخذ من سقراط موضوعاً لسخريته ، أعنى سقراط كما كان — أو كما يمتقد أنه كان — في وقت كان أفلاطون وزيغوفون ما يزالان شبه رضيعين ، يصبح هذا الفارق مفهوماً إلى حد كبير ، إذ نرجعه إلى اختلاف الزمن [بين المكاتب الأولى والمكاتبين الآخرين] . وربما ثبت لنا أن سقراط كان في الخامسة والأربعين من عمره رجلاً مختلفاً في بعض النواحي عنه في الخامسة والخمسين أو الستين ، وأن الدليل على ذلك مستمد فعلاً من مؤلفات

أفلاطون وزينوفون ذاتهما ، حين نقرأها بالعناية اللازمة ، وهى ذلك فسوف أستعين بالمسادة التى وردت فى المسرحية الأثينية تبياناً لحذف هذه الصورة التى أرسمها ، وآمل أن أكون حذراً بالقدر الواجب .

وحين نعرض لتقدير المغارقات — حقيقة كانت أو مزعومة — بين أفلاطون وزينوفون نفسيهما نجد أن أول ما قد نصطدم به هو أنه قد بولغ فى تقديرها بغير موجب . ففيما عدا نقطة واحدة أو نقطتين فى التفاصيل ، لا نجد زينوفون — فيما يرسم من صورة — يخالف أى شيء . يقوله أفلاطون عن سقراط . إذ الذى يصنمه فعلاً لا يبدو أن يكون حذف شيء من التفاصيل أو المهيوط بها إلى مستوى الحوادث الجارية . أما المعلومات التى يزودنا بها فهى محدودة . وفى إمكاننا بالاعتماد على أفلاطون وحده أن نصنف ترجمة كاملة للبطل الذى يتحدث عنه ، من شبابه الباكر إلى سنواته الأخيرة . ولكن من المستحيل أن نؤلف مثل هذه القصة من المعلومات التى يمدنا بها زينوفون^(١) ، وإن كانت القراءة الدقيقة كثيراً ما ترينا أنه يؤيد عرضاً أشياء تعتبر من أهم خصائص البطل فيما ذكر أفلاطون . وكذلك نجد أن الطابع الفردى البارز للصورة التى يرسمها أفلاطون لسقراط تقدم انعداماً تاماً عند زينوفون ، الذى يتجاهل معظم الخصائص التى تجعل من بطل أفلاطون « شخصية لها كيائها المستقل » . « فتكم » سقراط أو طريقته الخاصة فى الدعاية ، وطابع

(١) لقد حاولت أن أوضح هذا بالتفصيل فى مقال نشر فى مجلة الأكاديمية البريطانية The Proceedings of the British academy لعام ١٩١٧-١٩٨١ (ص ٩٣ وما بعدها) بعنوان « ترجمة أفلاطون لسقراط » .

«الشك السقراطي» الذى يتميز به كلاهما ، يصل إلينا من طريق أفلاطون وحده . أما «سقراط» زينوفون فلا يساوره الشك فى أمر على الإطلاق ، وليس لديه من الدعابة ما يستحق الذكر . وبما لا شك فيه أننا نستطيع أن نفهم ذلك بأن سقراط كان شخصاً عادياً حوله أفلاطون إلى عظيم من الطراز الأول ، بأن خلع عليه شخصية هى فى الواقع شخصية أفلاطون نفسه^(١) . ولكن الافتراض الذى لا يقل قوة عن هذا هو أن سقراط الحقيقى كانت له تلك المواهب المدهشة التى نسبها له أفلاطون ، وأن عدم وجودها فى الصورة التى يعرضها زينوفون يرجع إلى ضعف بهيمة المؤلف أو افتقاره إلى القدرة على التصوير المبدع . فرمما كانت الشخصية العادية هى شخصية المؤلف ذاته لا شخصية الرجل الذى يتحدث عنه . وينبغى كذلك أن نتذكر أن الغرض الواضح الصريح من كتاب «الذكريات» يقتضيه أن يصور سقراط فى صورة الرجل العادى . ومع أن الكتاب يفتقر إلى وحدة تمسك بأطراف الموضوع ، ومن الواضح أنه قد كتب منسجماً إلا أن طابعه العام يتحدد من أنه قد كتب منذ البدء بقصد واضح وهو المدفاع عن سقراط إزاء التهم التى وجهت إليه فى أثناء المحاكمة . وهدف زينوفون هو أن يقول إن القضاة الذين أدانوا سقراط بالإلحاد وتضليل «النساء» انسياقاً وراء ما استنوا من أسس أخلاقية ومعايير ،

(١) إن أكثر من واحد من المؤلفات المتنازعة عن أفلاطون ينسدها مثلاً ذلك الزعم بأن الصورة المدهشة التى رسمها أفلاطون لسقراط فى محاوره «المأدبة» Symposium «هى تصوير سيكلوجى عن شخصية أفلاطون نفسه ، وسواء أكانت كذلك فى الواقع أم لم تكن ، فأفلاطون — على أقل تقدير — لم يصرح بأن ذلك كان هدفه .

قد أخطوا الاستنتاج من مقدماتهم ذاتها ، لأنه كان في الحقيقة نموذجاً لكل ما يفهمه متهموه من معاني التقوى ، وإن الأخلاق التي كان يسير عليها في واقع حياته ويبشر بها كانت على وجه الدقة هي الأخلاق التي يود الأثيني الصالح من عامة الناس أن يحثيها في حياته ، ويلقنها أبناءه لو استطاع . ومن الواضح ولاشك — كما قال بيرت Burnet — أن مثل هذا الدفاع يخفق في أداء مهمته لأنه — على وجه التحديد — قد جاوز المدى في نجاحه ؛ فلو أن سقراط كان حقاً بالصورة التي يحملنا زينوفون على تصديقها ، لما قدم للدفاع قط . إن هدف زينوفون الدفاعي ليفرض عليه أن يطمس بقدر ما يستطيع كل لمحة في شخصية بطله تم عن الأصالة والتفرد ، ومن ثم تُجسّد في أفكار القارئ الضيق الأفق المحكوم بالتقاليد . وينبع ذلك أنه يتعين علينا ونحن نقرأ قصته ألا ننسى هذه القاعدة التي تنطبق على مجادلة من هذا النوع . وهي أن أهم ما يجب على لسان المدافع هو الاعترافات التي تجيء عرضاً ، في حين أنها لا تخدم القضية التي يدافع عنها زينوفون مثلاً يسىء إلى قصده حين يقر عرضاً في إحدى فقراته بأن سقراط كان في فترة من الفترات يمثل رئيس جماعة من طلبة العلم ^(١) ، وفي أخرى أنه كان على علم واسع بالهندسة والفلك ^(٢) ، وفي ثالثة أن الفيثاغوريين الأجانب كانوا من أصدقائه المقربين ^(٣) . وفي هذا ما يضفي معنى خاصاً على دفاعه في هذه النقاط جميعاً . وحتى لو فرضنا أنه هنا يستمد معلوماته

(١) الذكريات ، ١٤٤ ، ١٤٤ ، ١٤٤

(٢) الذكريات ، ٤٤ ، ٧٤ ، ٧٤ — ٦

(٣) الذكريات ، ١٨٠ ، ٢٠١ ، ٢٠١

من بعض محاورات أفلاطون مثل «فيدون» ، التي لا شك أنه كان قد قرأها ، فإن عمله هذا يثبت أنه وجد تصوير أفلاطون مطابقا لما كان يعرفه عن سقراط . فإذا قرأنا زينوفون على ضوء هذه التحذيرات التي ذكرناها آنفا ، فأعتقد أننا لن نجد تناقضا بين صورته وبين الصورة الكاملة التي يقدمها لنا أفلاطون . بل سنجد لها مؤيدة لها في بعض النقط وبصورة قاطعة . ولكن ما يزال أمامنا أن نواجه الاعتراض الرئيسي الذي وجه إلى محاورات أفلاطون كتصوير صادق لحياة وأفكار هذه الشخصية التاريخية . ومن الواضح أننا دون أفلاطون لا نملك مادة نشتق منها ترجمة متصلة لسقراط تلقى أى قدر من الضوء على شخصيته . وصحيح كذلك أن أفلاطون يعطينا صورة للشخصية الرئيسية في محاوراته ، صورة كاملة واضحة لا تناقض بين أجزائها . ولكن هذا في ذاته لا يقطع بأن «سقراط» أفلاطون قد لا يكون من أوله إلى آخره من نتاج الخيال الإبداعي مثل عطيل وفولستاف ، وما تزال بعض الدوائر العلمية تعتقد أنه كذلك ، وإن تكن هذه الفكرة تضاعفات بحيث لم تعد كما كانت عليه قبل خمسين عاما فهل نستطيع أن نقدم سببا معقولا لرفض هذا الاعتقاد الذي ساد بصفة عامة في وقت من الأوقات ؟ إن مناقشة هذه النقطة مناقشة تهدم كل افتراض ينفيها أو يأتى عليها يستغرق مجلدا بأكمله ، ولا يمكن أستطيع هنا أن أشير إلى الاعتبارات الرئيسية التي تبدو لي حاسمة (١)

(١) في الوقت الذي لا يوجد فيه مؤلف خاص بهذا الموضوع فاق أحيل القارىء أولا =

ففي المقام الأول نجد أن الأبحاث الدقيقة التي قام بها الباحثون من أمثال لويس كامبل Lewis Campbell وك. ريتير C. Ritter ولو توسلافسكي Lutoslawski وغيرهم ، قد أثبتت بطريقة قاطعة أن طائفة من محاورات أفلاطون الهامة مثل «السوفسطائي» و «السياسي» و «فيلابوس» و «طيمابوس» و «القوانين» (بما لها من خصائص متميزة في اللغة والأسلوب ، لا بد أن تكون لاحقة في كتابتها لسائر مؤلفات الفيلسوف (أفلاطون) ، وأنها تفتنى بشكل واضح إلى فترة متأخرة من حياته كان فيها على رأس مدرسة منظمة ذات مذهب خاص بها محدد أشد التحديد . وواضح أن هذه المؤلفات قد كتبت في مرحلة متأخرة جدا عن الفترة التي كتب فيها الجانب الأكبر من محاورات أفلاطون ، وأن من بين هذه المجموعة الأخيرة محاورتين أو ثلاثا تبدو من ناحية الأسلوب مرحلة انتقالية وهي «الجمهورية» و «فيدروس» و «تيتانوس» . ومن ثم فإن هناك إجماعا بين الباحثين على أن معظم محاورات أفلاطون لا بد أن تكون قبل أن يؤسس أفلاطون مدرسته — الأكاديمية — بصورة مؤكدة ، وأن

== وقبل كل شيء إلى بعض مؤلفات الأستاذ بيرنت، وخاصة مقاله عن «سقراط» في «دائرة معارف الدين والأخلاق» التي يصدرها هينجز ، المجلد الحادي عشر ، ومقدمة الطبعة التي أصدرها من محاوره فيدوت (أكسفورد ١٩١١) «والفلسفة الإغريقية» الجزء الأول من طاميس إلى أفلاطون (١٩١٤) فصل ٨ ، «وحياة سقراط» . وأحب أن أضيف سرهما آخر هو المؤلف الممتاز الصغير الحجم الذي ألفه قسطنطين ريتز الجائز في الفلسفة الأفلاطونية بنوان «سقراط» (توبنجن ١٩٣١) ومن بين المؤلفات الأقدم عهدا كتاب جيد بصفة خاصة هو كتاب ليفو بروتر المسمى Das Literarische Porträt der Griechen (١٨٩٦) .

المجموعة من أول « السوفسطائي، إلى « القوانين، قد ألفت بعد أن تورط
مركز الأكاديمية كمؤسسة عليية نظامية، وأن مؤلفات المرحلة الانتقالية
قد كتبت إما في مبدأ تأسيسها وإما في العقود الأولى لتأسيسها^(١). هذا
وبينما نجد في المحاورات الأولى أن سقراط هو دائماً الشخصية الرئيسية
فيما والرجل الذي يدير المناقشة، فإننا نجد هذا يتغير تغيراً تاماً في المجموعة
التي تبدأ « بالسوفسطائي، فلا نرى سقراط الشخصية البارزة إلا في
واحدة فقط من المحاورات المتأخرة (هي محاور « فيليبوس، التي تتناول
موضوعات خاصة بعلم الأخلاق وعلم النفس الأخلاقي) بينما هو في
« السوفسطائي، و « السياسي، و « طيمائوس، حاضر بشخصه ولكنه
لا يشترك في المناقشة. وفي كتاب « القوانين، نجده قد أهمل إهمالاً تاماً؛
ونجد أن الذي يشرح المذاهب المنطقية والسياسية في محاورتي « السوفسطائي،
و « السياسي، زائر من إيليا Elea لا يذكر اسمه، وأن الذي يتناول النظريات
الطبيعية في « طيمائوس، إيطالي من أتباع فيثاغورس، أما المنهج الفقهي
العظيم في كتاب « القوانين، فيقدمه أثيني مجهول. ولست أرى سبباً لهذا

(١) لأن التاريخ الدقيق لتأسيس هذه الأكاديمية، وهي أول جامعة أوروبية، ليس معروفاً،
ولكن لا يمكن أن تكون أسست قبل بلوغ أفلاطون الأربعين من عمره (٣٨٨/٧ ق.م.)
وليس من المحتمل أن تكون قد تأخرت عن ذلك بكثير. وهناك ما يرجع أن تكون
محاور « تيتائوس » قد كتبت سنة ٣٦٨ ق.م. وهي بالتأكيد آخر كتب « المرحلة الانتقالية »
كما أن « الجمهورية » أولها. (وأنا شخصياً أؤيد الذين يرون أن « الجمهورية »
لا بد في الأصل أن تكون قد كتبت إما قبل تأسيس الأكاديمية مباشرة وإما في السنوات
الأولى من تأسيسها، أما المحاورات المتأخرة في الزمن من أول « السوفسطائي » إلى
« القوانين » فينكاد يكون من المؤكد أنها كلها تالية لعام ٣٦٠ ق.م.

التغيير الذى يلفت النظر فى طريقة العرض إلا ذلك الذى يقدمه يبرت
وهو أن إدراك أفلاطون التاريخى لحقيقة سقراط قد منعه من أن يجعل
سقراط هو الذى يقوم بعرض اتجاهات ومذاهب فلسفية وعلمية يعلم
أفلاطون جيداً أنها من ابتكاره هو وأهل عصره . فلدينا هنا - فيما
أرى - برهان أكيد على أن أفلاطون لم يستخدم سقراط قناعاً يحتمل
وراءه ، أو صورة مثالية خيالية لما ينبغي أن يكون عليه ، الفيلسوف . .
ولو أنه كان قد صنع ذلك فليس من سبب معقول يحسده إلى عدم
الاستمرار فى هذا الأسلوب إلى النهاية . فلستطيع إذن أن نطمئن إلى
استنتاجنا بأن أفلاطون لم يكن بصورته التى رسمها قد جنح بتفكيره عن
الصورة التاريخية التى رسمها لسقراط فى المحاورات العديدة التى كان ذلك
الفيلسوف شخصيتها الرئيسية ^(١) ، فإن كان قد جنح عنها فلم يكن ذلك عن
وعى منه بذلك على الأقل .

(١) ينبغى أن تذكر فى هذا الصدد تلك الفقرة العجيبة فى محادثة طيلوس (١٩٠ ب
وما بعدها) حيث يجرى على لسان سقراط اعتراف بعجزه من وصف ممالك الدولة المشغولة
بشئون الحرب أو الدبلوماسية ، وينسب عجزه ذلك إلى افتقاره إلى الخبرة السياسية . وليس
فى كتاب « الجمهورية » نفسه شئ مثل هذا الإحساس بالقصور فى معلومات سقراط . أما مودة
سقراط إلى الظهور بوصفه الشخصية الرئيسية فى محادثة « فيلبوس » فيمكن تفسيره بأن
الموضوعات التى تتناولها هذه المحادثة وهى فى صميمها نفس الموضوعات التى تناولتها محاورات
سابقة مثل جورجياس . ولست أقول بطبيعة الحال إن كل محاورات سقراط الأفلاطونية عبارة
عن تسجيل دقيق للمناقشات التى حدثت بالفعل كتسجيلات يوزويل (لأقوال الدكتور جونسون)
ولأن كان من المحتمل جداً أن يكون بعضها مبنياً على المناقشات الحقيقية . ولأنما كل ما قصده
ببساطة هو أن المحاورات قد قصد بها عرض صورة صادقة لهذه الشخصية التاريخية ومكانتها
بأوج نشاطها ونظرياتها فى التفكير .

والأمر الثاني أن هناك مجموعة من مؤلفات أفلاطون الأولى يبدو فيها أنها تستبعد كل هدف غير تسجيل الوقائع التاريخية ، وهي تلك المحاورات التي تتناول ظروف محاكمة سقراط ووفاته (« أوطيفرون » ، و « الدفاع » ، و « أتريطون » ، و « فيدون ») لقد كانت تلك قضية عامة كما نستطيع أن نحكم من انتقاد أيسوقراط في كتابه المسمى « Busiris » على الأديب بولقراط ، وفي الكتيب الذي قدمه أدلة الاتهام ولا شك أن محاورة « الدفاع » ، الذي ألفه أفلاطون كان قد انتشر في غضون سنوات قليلة جداً من المحاكمة ، ولا بد أنه قد اطلع عليه كثير من القضاة الذين حاكوا سقراط بالفعل ، كما اطلع عليه كثير ممن شهدوا المحاكمة ، وإذا فأت تصور خاطئ للوقائع تحت هذه الظروف كان أمراً بالغ الخطورة والخرج بالنسبة للمؤلف ، ولستطيع أن نستنتج من ذلك أن « الدفاع » — بل التحدى في واقع الأمر — الذي يضعه أفلاطون على لسان أستاذه هو في جوهره تمثيل صادق لما قيل بالفعل . وإلى هذا الحد — في الواقع — يتفق اليوم معظم العلماء الذين يقدر لسلامتهم وزن (من أمثال ريتز Ritter ، وفيلاموفيتز مولندورف — Wilamowitz Moellendorf) . ولكنني أعتقد مع بيرنت أننا ينبغي — لكي نكون منطقيين مع أنفسنا — أن نخطو خطوة أبعد فنفس هذه الاعتبارات تنطبق على « فيدون » ، بما تشتمل عليه من وصف الساعات الأخيرة من حياة سقراط . ويحدثنا أفلاطون أنه هو شخصياً كان بعيداً عن مسرح الحوادث بسبب مرضه ، ولكننا نعلم — بشهادة واحد من

تلاميذه^(١) - أنه هو وغيره من أعضاء حلقة سقراط قضاوا الأسابيع التالية لتنفيذ الحكم في مدينة ميجارا Megara ، بصحبة الفيلسوف قليدس ، وهو أحد الأشخاص الذين ترد أسماؤهم في القصة . ومن ثم فلا سبيل إلى الشك في أن أفلاطون قد تلقى تفاصيل دقيقة عن أحداث ذلك اليوم المشهود ، من عدد من شهود العيان . ومن المؤكد كذلك أن كثيراً من الأشخاص الذين وردت أسماؤهم في هذه المحاورة متفرجين أو خطباء - إن لم يكن كل هؤلاء - كانوا أحياء حين نشرت محاورة فيدون (مثل قليدس نفسه ، وسيمياس وهو من أبرز المتكلمين يومئذ) ولست أستطيع أن أتصور أن أفلاطون كان يمكن أن يخلد صورة مفصلة لمثل هذا الموضوع - حتى لو رغب في ذلك - وهو معرض لمن يتعقبه بالتصحيح . وما لم تكن محاورة فيدون ، تسمية مقصودة لغاية معينة ، فيلزم على الفور أن تكون الفكرة الرئيسية فيها ، التي أطلق عليها اسم « نظرية المثل » ، والتي تقول المحاورة إن سقراط قد احتقنها في شبابه وكانت معروفة لدى مستمعيه ، كانت في الواقع فكرة سقراطية ، ولم تكن كشفاً كشف عنه أفلاطون . فإذا كان الأمر كذلك ، فقد انتفى السبب الذي نفترضه تبريراً للاعتقاد بأن أفلاطون استحل لنفسه العبث بالحقائق التاريخية في هذه المحاورات ، ولا يكون ثمة سبب يمنعنا من أن نؤمن بما توحى به محتوياتها لإيجام مباشر - وهو أن هدفها المباشر لم يكن ترويج مذهب خاص للوآلف ،

(١) هو هرمودوروس Hermodorus الذي يقول عن هذه الواقعة (ديوجينيس ليرتيوس ١٢٤) « وكان أفلاطون في الثامنة والعشرين من عمره حين ذهب هو وغيره من تلاميذ سقراط إلى قليدس في مدينة ميجارا » وترد العبارة ذاتها في نفس الكتاب مرة أخرى .

يل كان الاحتفاظ بذكرى مفكر عظيم لم يترك لنا شيئاً من تأليفه^(١).
ويبدو أن الحقيقة في الواقع هي أن أفلاطون — مثله مثل كانت —
هو أحد أولئك الفلاسفة الذين لم تتبلور اتجاهاتهم الفكرية إلا في أواسط
أعمارهم فهو قبل أن يكون فيلسوفاً صاحب مذهب ومدرسة خاصين به ،
كان فناناً مسرحياً عظيماً ، وقد استخدم مواهبه الفنية في أن ينفخ الحياة
في سقراط وحلقته ، لجعل من الناس لولاه لما كان هؤلاء بالنسبة إليهم
أكثر من أسماء . ويحتمل أنه وقت كتابة هذه المحاورات الفنية العظيمة
لم يكن قد اتخذ لنفسه بعد مذهباً ، خاصاً ، وفي الوقت الذي أصبحت له
فلسفة أفلاطونية يذيعها على الناس ضعفت ملكته المسرحية . وينبغي
أن نتذكر أن أفلاطون — كما تدل جميع الظواهر — كان هو الذي أبدع
المحاورات السقراطية كرون من ألوان الأدب^(٢) . وليس من المفهوم

(١) ليس صحيحاً — كما يظن أحياناً — أن أرسطو قال في يوم من الأيام إن نظرية
المثل لم تكن معروفة لدى سقراط . ومع ذلك فلو أنه قال ذلك فليس هذا إلا استنتاجاً خاصاً
منه . أما الصحيح فهو أن أرسطو يربط عادة بين النظرية وبين أسماء أفلاطون وأتباعه ،
وأنه من المحتمل أنه كان يشير إلى أفلاطون حين يتحدث في إحدى الفقرات (الميتافيزيقا
1078. b11) عن « أولئك الذين قالوا لأول مرة إن هناك صوراً كلية أو مثلاً » . ولأن
كان ذلك غير مؤكد) ولما كان من المؤكد أن النظرية قد دخلت عالم التأليف الفلسفي عن
طريق محاورات سقراط الأفلاطونية فإن مثل هذا التعبير يصبح طبيعياً على أية حال .
أما القول الوارد في « أخلاق نيقوماخوس » بأن الذين استحدثوا النظرية هم « أصدقاء
أرسطو » (E. N., 1096 a B) فلا يثبت شيئاً ذلك أن أية نظرية سقراطية تتمتع
بمكانة يستطيع منها أي تلميذ لأفلاطون أن يتحدث عنها بوصفها نظرية صديقه (نظريته من
عمل أصدقائه) .

(٢) من المؤكد — أو يكاد يكون من المؤكد — أن كل كتابات زينوفون السقراطية
مأخوذة عن معظم محاورات سقراط الأفلاطونية . ويبدو أن هذا يصدق كذلك — بقدر ما يتوهم
المعلومات التي بين أيدينا — على محاورات أسكيلس .

سبب اختياره لكل هذا الأسلوب في الحوار ، إذا كان هدفه الاساسى هو أن يفرس فلسفته الخاصة . ولو أن الهدف انصرف في الأصل لفرس فلسفته لاستتبع هذا أن مثل هذا الأسلوب الحوارى بين أشخاص معروفين ما كان ليصلح أداة للتعبير في جيل يسبق جيل المؤلف (أفلاطون) . أما إذا كان هدف أفلاطون الاساسى هو الاحتفاظ بذكرى رجل عظيم وعصر عظيم ، فإننا ندرك على الفور لماذا فضل أن يبتدع تلك الصورة الأدبية الخاصة التى تناسب غرضه إلى أقصى حد .

ولقد تسامل الناس عن السبب الذى حدا بأفلاطون أن يؤلف كل هذه المؤلفات ، وبكل هذه العناية ، إذا كانت الأفكار التى تتضمنها ليست أفكاره الخاصة ، وإنما هى — فى خطوطها الرئيسية كلها — أفكار قوم آخرين . والسبب الواضح لذلك أنه كان يعيش — كما كان يعلم جيداً — فى مجتمع قد مرت به حرب وكان عهده فى المجد قد انقضى . فكان المجهود الذى قام به ليحيا فى عالم الخيال ذلك المفكر البارز من مفكرى الأيام المجيدة فى القرن الخامس والدائرة التى كان يتحرك فيها ، نوعاً من الوفاء بالواجب نحو سقراط ، ونحو مجد أثينا الزائل ، بما يقترن بهذا من واجب نحو الأسرة الأثينية الشهيرة التى كان ينتمى إليها أفلاطون ، ومهرباً فى الوقت نفسه من انكسار القلب الذى كان يحس به أفلاطون والذى نراه مصوراً فى الرسالة السابعة من رسائله . وإننا كثيراً ما ننسى أنه لولا المادة التى خلقها أفلاطون فى محاوراته السقراطية لما عرفنا شيئاً أبينة نتحدث به عن الحياة الفكرية لفترة الأهمام الستين أو نحوها ، منذ صد جيش

إكرركسيس Xerxes إلى صلح نيقية Nicias وهو أجد أيام التاريخ الأثيني القديم وأوفرها ثراء^(١). والمؤرخون في واقع الأمر يستمدون معلوماتهم من هذه المحاورات عادة ليرسموا صورتهم عن الحركات الفكرية في هذا العهد ، ولكنهم يفقدون حقهم في أن يفعلوا ذلك لو كان من الممكن اتهام أفلاطون بأنه يعبث بالحقائق التاريخية دون تحرز كما يتهم بذلك كثيراً فيما يرويه عن سقراط^(٢). وإن نظرية يتخذها الناس عن الأساليب الأدبية لأفلاطون ثم يجدون أنفسهم مضطرين إلى تجاهلها، لمى نظرية بعيدة عن الصواب وإذن فالفرض الذي سيقوم عليه حديثنا المقبل عن سقراط هو أن الصورة التي يرسمها أفلاطون لاستاذة صورة دقيقة في صميمها ، وأن المعلومات التي يدنا بها عنه قد قصد بها أن تؤخذ على أنها حقيقة تاريخية. وليس من شأن هذا الفرض أن يبنى بطبيعة الحال أن يكون سقراط قد أضمت عليه الحالات في ذهن أفلاطون ، نتيجة تأثره بأنه مات شهيداً ، ولكن يلزم عن هذا الفرض أن مثل هذا الإضفاء إنما يكون لاشعورياً ، وأنه لم يكن ثمة قصد لإخفاء الحقيقة في المحاورات . ونقول مرة أخرى إنه لا يترتب على هذا الفرض أن كل ما يحدثنا به أفلاطون لا بد أن يكون حقيقة تاريخية . فحين يصف سقراط — وكثيراً ما يفعل — في الصورة التي كان عليها في أيام صباه هو (أى أفلاطون) (كما في محاوراة المأدبة

(١) في كتاب بيرنت الذي طبع بعد وفاته ، والسمى « الفلسفة الأفلاطونية » إبراز خاص لهذه النقطة (مطبعة جامعة كليفلاند ١٩٢٨) ص ٥ وما بعدها .

(٢) كل مؤرخ يتحدث عن عصر « السوفسطائيين » يعتمد — في معظم ما يقول — على محاورات أفلاطون مثل بروتاجوراس وجورجياس مع أن المؤلف الذي يعتبر سقراط أفلاطون شخصية خيالية ينبغي أن يكون منطقياً مع نفسه فيتخذ نفس النظرة نحو بروتاجوراس أو جورجياس أو تراساخور .

(symposium) أو قبل مولده بزمان طويل (كما في محاوره پارميدس) فهو يتحدث عن أمور لا يمكن أن يكون لها خبرة شخصية، وهو عرضة للخطأ فيها. ولكن ينبغي أن نذكر أن قصته عن سقراط ذاتها تذكر أن أفراداً من أسرته ابتداء من جده الأعلى لوالدته — وهو أفريقياس Critias المذكور في محاوره طيماوس — إلى عمه شارميدس Charmides وأخويه الأكبرين كانوا جميعاً على درجات متفاوتة من الصلة الوثيقة بسقراط. فهو بذلك في وضع يمكنه من أن يكون ملماً لما لا غير عادي بالشئ الكثير مما يقع خارج حدود ذاكرته^(١). فإذا كانت النتائج التي تقرب على استخدام هذا الغرض السابق تسمى مفسدة بعضها مع بعض، وإذا وجد أن ثمة دليلاً ينهض على صدقها فيما يمس بعض النقط التي يحوم الجدل حولها، ففي وسعنا — ونحن مطمئنون — أن نعدّها بمنجاة من كل شك معقول.

(١) لا بد أن زينوفون أيضاً كان يعتمد على شهادة رجال أكبر منه سناً في النقط التي سنبعد أنها أكثر ما في كتابه تنويراً للأذهان. ولما كنا لا نجد من الأسباب ما يحلنا نشر بالاطمئنان الكامل إلى قيمة معلوماته كما نحس نحو أولئك الذي استمد منهم أفلاطون معلوماته. والمرجع الوحيد الذي يذكر اسمه وهو هرموجينيس Hermogenes الأخ غير الشقيق لكالياس التري، لا يبدو لنا في الصورة التي يرسمها له أفلاطون (في محاوره أقراتيلوس Cratylus) وكذا زينوفون ذاته (في محاوره المادية) رجلاً ذا فطنة عميقة. وربما أمكن أن نستج أن زينوفون قد رجع أيضاً إلى أنتستانس Antisthenes الذي يكاد يكون من المؤكد أنه أكبر سناً من زينوفون أو أفلاطون. ولكن ليس هناك ما يدل على أن زينوفون كانت لديه فرصة مناسبة للاتصال بأنتستانس حين كان منكبا على كتابة مؤلفاته «الغرامية». وكذلك ليس هناك احتمال بأنه قد اتصل به فعلاً. أما الآراء الحديثة التي تقول بإمكان أخذ زينوفون شيئاً من «كتابات» أنتستانس فهي بطبيعة الحال مجرد آراء.

الفصل الثاني

المراحل الأولى من حياة سقراط

لم يكن التسجيل الرسمي للمواليد معروفا في أثينا ، ولذلك فلم يسجل لدينا
سجل رسمي مباشر نعرف منه تاريخ ميلاد سقراط بن سوفرونيكوس Sophroniscus
وفيناريق Phaenarete ، من القبيلة الأنطاكية ، ومن قرية ألويس Alopcece . ومع ذلك فإننا نستطيع بطريقة غير مباشرة أن نحدد
تاريخ ميلاده في أضيق نطاق زمني ، فقد كان هناك دون شك تسجيل رسمي
لمحاكمته وإدانته . اللتين حدثتا في ربيع سنة ٣٩٩ ق م (عام لاخس) ،
وقد حدثنا أفلاطون أن سقراط يوم محاكمته كان في السبعين من عمره .
أو أكبر قليلا^(١) ومن ثم فنحن أقرب ما نكون إلى الصواب إذا افترضنا
أنه ولد في عام ٤٧٠ ، بعد مرور تسع سنوات فقط على انتصر الحاسم
الذي صد الجيش الفارسي في بلاتيا Plataea . وعلى ذلك فإنه حين ولد
سقراط كان بركليز ما يزال شابا صغيرا ، وكان سوفوكليس ويوريبيديس
Euripides صبيين ، وكان أيسكيلوس Aeschylus قد أُلِف مسرحيته
العظيمة ذات الموضوع الوطني التي تسمى « الفرس » ، منذ ما يقرب من
سنتين بتكليف من بركليز . وربما كان الفيلسوف في صباه قد حضر تشيل
رواية أجاممنون Agamemnon ، كما شهد كل مأسى سوفوكليس ويوريبيديس
العظيمة . وكل المباني والأعمال الفنية الرائعة التي كانت أثينا غنية بها في
عهد بركليز ، والأسوار الهائلة التي كانت تصل المدينة بميناء بيراموس ،

(١) محاولة الد ح ١٧ د وتختلف النسخ هنا ما بين (سبعين) و (ما فوق السبعين) وفي

« كريتون » (٣٨٥٢) يجري القول على لسان سقراط بأنه في (السبعين) من عمره .

ومعبد العذراء (البارثنون Parthenon) وثمانيل فيدياس Phidias ورسوم الحائط التي كان يرسمها بوليغنوتوس Polygnotus . كل هذه قد بدأ العمل فيها وتم تحت بصره . ولم تكن قد مرت عند مولده عشر سنوات على تأسيس حلف ديلوس Delas الذي كان نواة الإمبراطورية الأثينية البحرية . ولا بد أنه كان قد بلغ من السن ما يمكنه من تتبع الأحداث من حوله حين وضعت أسس ديمقراطية بركليز بإبعاد كيمون ابن ميليقيداس Cimon son of Militiades غريم بركليز (هام ٤٦١ ق . م) وتقرير نظام الضرائب العامة من أجل إاة محاكم ديمقراطية يحكم فيها المحلفون . وكان قد بلغ الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين حين توصلت أثينا وإسبرطة إلى إقامة سلم الثلاثين عاما ، الذي ترك أثينا — مقابل التنازل عن مطاعمها في التوسع البري — حرة في بسط سلطاتها على بحريجه ، فأصبحت بذلك أول قوة بحرية في العالم . وكان على وشك أن يبلغ الأربعين حين نشبت الحرب الطويلة التي أدت إلى تحطيم عظمة أثينا . ومن المهم أن نتذكر هذه الحقائق لسبب غاية في البساطة ، فإن صورة سقراط التي سيطرت على خيال الأجيال التي تلت كلها هي بلاشك تلك المأخوذة عن أفلاطون في محاوراته التي تناولها حكيمته ووفاته في شيخوخته ، كما أن الصورة التي تتخيلها كلنا عندما نفكر في جونسون هي تلك التي رسمها له بوزويل ، الذي لم يكن قد رآه حتى قارب الرابعة والخمسين ، وخلف وراءه صراعات عمرها بأكثر من نصف قرن . ولن نستطيع أن نبدأ — مجرد بدء — في فهم سقراط من الوجهة التاريخية

من يقر في أذهانتنا أنه قد أنفق صباه وشبابه الأول في مجتمع ، تفصل بينه وبين ذلك الذي نشأ فيه أفلاطون وزينوفون ، نفس الهوة التي تفصل ما بين أوربا قبل الحرب وأوربا بعد الحرب .

واسننا نعلم للكثير عن والدى سقراط . ويحدثنا أفلاطون في كتاب « لآخس Laches » ،^(١) أن صوفرونيكوس كانت تربطه صلات الود الوثيق بأصرة أرسطيدس « العادل » Aristides التي كانت تقطن نفس قريته ، ويشير إلى أنه كان له بعض التقدير في قريته وفي « كريتون » ،^(٢) إشارة إلى أنه كان شديد الحرص على أن يتيح لولده التعليم الأول السائد يومئذ في القرية الرياضية ، والموسيقى . وكان ليفتاريقو — ويدل اسمها على أنها كانت من أسرة عربية — ابن يسمى بروتوكليس Patrocles من زوج آخر^(٣) ويحدثنا أفلاطون في محاوره ثياتيتوس^(٤) أنها كانت ذات براعة هائلة في فن التوايد (وقد اعتبرت هذه العبارة في وقت من الأوقات لونا من الدعابة ، ولكنها تكون غاوية من الدلالة حين تكون مجرد خيال عار عن الصحة . ولكن لا ينبغي بطبيعة الحال أن نخطئ . فنعتقد أنها كانت قابلة محترفة ، في وقت لم تكن هذه الحرفة قد عرفت بعد)^(٥) وتقول الرواية التي

د ٥٠ (٢)

د ١٨٠ (١)

(٣) أفلاطون أونيديموس Eutydemus ٢٩٧ « ٤ ١١٤٩ »

(٥) وجهة نظر أفلاطون أن سقراط يقارن بأسلوب الدعاية — بين الخدمات التي يؤديها لأصدقائه الصغار بمساعدتهم في أن يخلصوا أنفسهم وبين الخدمات التي كانت تؤديها والدته ، وما قد يدل على أن سقراط كان يقيم هذه المقارنة فعلا ، أن أرسطوفان في مسرحية « السحاب » — وهي مسرحية صدرت حين كان أفلاطون لم يزل رضيعا — قد أورد نكتة هن « إجهاض غسكرة ما » (السحاب ، ١٣٧) وليس لهذا من معنى إلا إذا كانت مسخرة لطريقة في التمييز بينهم الجمهور أنها من خصائص سقراط .

وصلتنا في عصر الإسكندرية ، والتي ما تزال تردد بصفة عامة على أنها حقيقة ، أن صوفرونيكوس كان من أرباب الحرف — صانع تماثيل أو ناحت أحجار — ونعرف من بوزانياس Pausanias^(١) وديوجين لايرتيوس Diogenes Laertius^(٢) أن طائفة من تماثيل الآلهة المقامة في الأكروبول قد نسبت إلى سقراط ومهما يكن من أمر فإن ذلك يبدو بعيد الاحتمال جدا ، إذ يبدو أن علماء الآثار متفقون على أن هذه التماثيل التي وصفها بوزانياس لابد أن تكون من صنع نحات سابق على هذا العصر (وقد كان اسم سقراط متداولاً بين الإغريق) . وأقدم إشارة بين أيدينا اليوم إلى سقراط بوصفه ابن رجل يعمل في نحت التماثيل ، هي الإشارة الواردة في أبيات من الشعر الهجائي كتبها تيمون الفيلبوسى Timon of Philus من شعراء القرن الثالث ، ويبدو كما قال بيرنت أنه لا أفلاطون ولا زينوفون قد سمعا قط هذه القصة . ولو أن أفلاطون كان يعرفها لما كان من المحتمل أن يُجْرى على لسان سقراط ما قاله في محاضرة «الدفاع» من أنه حين أخذتلفت حوله ليجث عن رجال أحكم منه ، التفت أولا إلى رجال السياسة ، ثم إلى الشعراء ، ولم يجر البحث بين أصحاب الحرف إلا في نهاية الأمر . واعتقد مع بيرنت أن هذه العبارة ربما نجمت عن فهم خاطئ ، لإشارة مازحة من سقراط في مؤلفات أفلاطون^(٣)

(٢) ١٩٩٢

(١) ٨٩٢٢٤١

(٣) أفلاطون في محاضرة أوطيفرون (١٠٠) . ويبدو من المؤكد أن هذه هي الطريقة التي فهم بها مؤلف السكيايس الصلة التي تربط سقراط بديدalos . ولا يكفي للاعتراف على ذلك أننا لا نملك دليلا آخر على عشيرة ديداليداي Daedalidae .

أشار فيها إلى ديدالوس Daedalus — الذى زعمت الأساطير أنه كان يصنع تماثيل من الخشب — على أنه من أسلافه ، وأن المعنى الحقيقى لهذه القصة هو أن الأسرة ذات نسب عريق يرجع إلى ديدالوس ، على نحو ما كان بيت فيليديا Philaidae الذى ينتمى إليه بيزيستراتوس Pisistratus ألكيبادس Alcibiades يرجعون نسبهم إلى آخوس Aeacus وعلى أية حال فإنه يبدو من الواضح — إذا وثقنا بكلام أفلاطون — أن سقراط لم يتخذ حرفة قط وإنما هو يُصَوَّرُ لنا على أنه كان دائماً رخي البال يهمل وقته على هواه . وأنه ائتمل منذ البدء بأبرز رجالات أثينا وهم رهط بركليز وكيمون .

وسواء كان صوفرونيكوس مثلاً أو لم يكن فلا ينبغي أن نخطئ . فنظن أن سقراط كان ينتمى إلى طبقة فقيرة كالطبقة الكادحة فى عصرنا الحديث (البروليتاريا) . نعم لقد عاش فى مسغبة شديدة فى شيخوخته — بعد حرب مدمرة أدت إلى أزمة مالية ، شاملة ، ولكن أفلاطون ينص على أن هذا الفقر كان يرجع بصفة مباشرة إلى استغراقه فى أداء رسالة ، لم تكن تترك له وقتاً للعناية بمشؤونه الخاصة (١) . ومهما يكن من أمر فليس من الممكن أن نعتبره حتى السادسة والأربعين من عمره منتظماً إلى الطبقات الدنيا من المواطنين الأثينيين ، إذ كان ما يزال فى سنة ٤٢٤ يعمل فى خدمة الجيش مقاتلاً من المشاة كامل العدة ، ولا بد أنه كان يتمتع بصفة رسمية الدخل الذى يؤهله لهذه المرتبة . وتواتر

(١) الدفاع (١٢٣) .

الإشارة إلى فقره في المسرحيات الساخرة التي أنتجها الشعراء في السنة التالية تم — وإن كانت غير قاطعة — على أن فقره كان يؤمئذ حديث الوقوع . ومن ثم يبدو أن هناك ما يحملنا على تصديق عبارة الباحث ديمتريوس الفاليريومي^(١) Demetrius of Phalerum الذي عاش في القرن الثالث من أن سقراط قد ورت بجانب المنزل الذي كان يسكنه رأس مال متواضع (يقدر بسبعين مينيا minae) كان يستثمره له صديقه أفریطون .

وقد كان سقراط منذ أيامه الأولى شخصاً يمكن أن نصفه بالشذوذ، في الناحية الجثمانية والعقلية كليهما . فقد أفاض كل من أفلاطون وزينوفون في الحديث عن قوته الجسمية الفائقة وقدرته على الاحتمال ، وهي تفسر إلى حد ما ذبوع صيته مقاتلاً . وما يشهد كذلك بقوته البدنية أنه حين مات في سن السبعين ترك طفلين صغيرين ، يبدو أن أحدهما كان رضيعاً في حضن أمه^(٢) . ويؤكد الرواة شدة زهده وعزوفه عن الطعام والشراب ، وكذلك قدرته في بعض المناسبات على أن يسرف في الشراب دون أن تفقده الكأس وعيه . وقد كان في فتوته يلبس ثوباً مفرداً شتاءً وصيفاً ، ويسير حافي القدمين حتى في معارك الشتاء القارس — كما يروى

(١) بلوتارك — أرسنيدس I, Aristides.

(٢) نجد على الأقل في محاوره فيدون (١٦٠) أنه حين سمح لأصدقاء سقراط بزيارته في السجن في آخر أيام حياته وجدوا امرأته زانثي Xanthippe قد سبقتهم إليه « ومهما الطفل » ومن المرجح أن تكون زانثي قد أمضت الليلة هناك ، وأنها جاءت بالطفل معها لأنه أصغر من أن يتروك في المنزل .

عنه أفلاطون^(١) ولكنه كان أبعد شيء عن الوسامة أو حسن التكوين . وقد شبه أرسطوفان مشيئة بحجة الطيور المائية . وكان يسخر من العادة الملازمة له إذ يدور بعينه فيما أمامه ويشير أفلاطون وزينوفون كلاهما إلى اتساع نطاق أنفه مع فطس شديد فيه ، كما يشير إلى شكل عينيه المتميز الذي قد يكون ناشئا إما من جحوظهما وإما من اتساع ما بينهما^(٢) . ويقول الكيادس في محاوره أفلاطون «المأدبة» إنه كان يشبه المخلوقات الحرفية المخروقة .

ومن الناحية العقلية كذلك كان سقراط منفرداً من وجوه عدة . وكانت أعجب خصيصة له في هذا الباب هي ، الهائف ، الخفي أو ، العلامة الخارقة للطبيعة ،^(٣) التي كانت ترعاه منذ طفولته ويروى أفلاطون - الذي لا يأخذ المسألة مأخذ الجد - أن هذه ، العلامة ، كانت تظهر بصورة متقطعة وغالبا ما تكون في مناسبات غاية في التفاهة ، وكانت دائماً تأخذ صورة تحذير مفاجيء ينهاء عن عمل معين^(٤) ودلت التجارب

(١) انظر وصف شدته وصلابته في الخنادق المظلمة بالتلوج أمام بوتيديا في الأدب (٢٢٠)
 (ب) وقد وصفه أبيسياس Amipsias في كونوس Connus (٤٢٣ ق م) بقوله (إنه ولد ليغتر الإسكاف) أما وصف أرسطوفان له في مسرحية العجاف ص ٣٦٢ وما بعدها .
 (٢) فإن بين رواية أفلاطون في (المأدبة ٢١٥ ب) وما بعدها ، ورواية زينوفون في (المأدبة ٥) .

(٣) هذا ما يسميه كتاب المؤرخون (الروح الحارس) لسقراط . ولا يتحدث أفلاطون عنها بهذه الصفة قط وإنما يسميها ببساطة (الشيء الخارق للطبيعة) انظر الوصف التفصيل لها في كلام سقراط نفسه أمام قضاته (الدفاع ٢١ د) .

(٤) في الجمهورية (٤٩٦ ب) يتحدث سقراط عن هذه (العلامة) على أنها خصيصة شخصية ربما كانت الوحيدة من نوعها .

على أن إهمال تحذيراتها يؤدي عادة إلى نتائج سيئة . أما زينوفون الذى كان فى طبيعته إثارة من الإيمان بالخرافة ، فإنه يبدى اهتماماً أكبر بهذه الظاهرة الشاذة ، إذ يعالج أمرها على أنها نوع من العرافة الخاصة ، ويصر على أنها كانت توحى له كذلك بتوجيهات إيجابية خاصة بشئون سقراط وأصدقائه ، لم يكن من المأمون إهمالها وتشتمل محاوره تياجس Theages التى ترجع إلى القرن الرابع ، والتى نسبت خطأ إلى أفلاطون ، عدداً من النوارد المعجبة عن أشخاص أمهلوا تعليمات هذه العلامة ، وكانت النتائج كوارث فظيعة . أما رواية أفلاطون فى هذا الشأن فربما كانت أقرب الروايات إلى الدقة إذ هى أقلها جنوحاً إلى المبالغة المثيرة للعواطف . وواضح من جميع الروايات أن العلامة ، كانت أبعثت فى طبيعتها عن الضمير ، فلا علاقة لها إطلاقاً بما هو خطأ وما هو صواب ، ولا يلجأ إليها — فى جميع الروايات المروية عنها — فى أمور تتعلق بالسلوك الخلقى ، وإنما غاية ما تصل إليه أن تكون نوعاً من النذير ، الخفى ، بسوء الطالع . وأهميتها الرئيسية بالفلسفة إلينا أنها واحدة من جملة إشارات تدلنا على أن سقراط كان له بالفعل مزاج أصحاب الرؤى ، وإن كان — على خلاف معظم هذه الطائفة من الناس — قد أخفى هذا الجانب من طبيعته على نحو ما أخفى القديس بولس موهبته فى ، التحدث بمختلف اللغات ، ومن العلامات الأخرى لهذا المزاج الذى يمنح أشهود الرؤى ، والذى أقاض أفلاطون فى الحديث عنه ، تعرضه لقوبات مفاجئة من الاستغراق والجحوش إلى التفكير البحت فصل به أحياناً إلى حد التنبؤ الحقيقية

أو النشوة الروحية . وكانت هذه الثوبات فيما يظهر تستغرق في العادة فترة قصيرة ، ولكن أفلاطون يسجل لنا نوبة منها أدركت الفيلسوف وهو يحارب أمام بوتيديا ، واستمرت نهارا كاملا و ليلة ^(١) . والحقائق التي يذكرها أفلاطون من هذا النوع تلقى ضوءاً على النزعة الصوفية القوية التي تتميز بها محاورات سقراط الأفلاطونية ، ويفسر ذلك عادة بأنه دليل على وجود نزعة صوفية لدى أفلاطون نفسه ، ولكننا إذا نظرنا إلى إقصاء هذه النعمة بشكل واضح في المحاورات الأخيرة التي لم يكن سقراط فيها شخصية بارزة ، بدا أنه من الأصوب أن نستنتج أن النزعة الصوفية التي تظهر في مؤلفات مثل « المأدبة » و « فيدروس » هي لأول وهلة من خصائص سقراط — وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد .

وبعدئنا أفلاطون أن الذي حد من هذه النزعة ومنعها من أن تنقلب عند سقراط إلى إيمان بالخرافة ، لم يكن « إصراره العنيد على تحكم العقل ، فحسب — وهي الخاصية التي يشترك فيها مع صمويل جونسون Samuel Johnson — ولكن كذلك سخريته اللاذعة التي يشابه فيها أيضاً « حكيم » شارع الصحافة بلندن . وهذه النزعة الساخرة هي التي يلقبها أعداؤه في محاورات أفلاطون « بتهكمه المعتاد » . والتهكم بهذا المعنى البدائي للفظ يعني تلك الخاصية الكريمة للرجل الذي يسعى إلى التهرب من تبعائه

(١) تروى محاوراة (المأدبة) أن سقراط أصيب (بنوبة ذهول) قصيرة من هذا النوع وهو في طريقه إلى مأدبة غداء (للمأدبة ١٧٤) وفي نفس المحاوراة (٢٢٠ - د) يصف الكيادس الشهيد الذي وقع أمام بوتيديا ، وقد كان هو من سرود الحادث .

بأن يحط من قيمة مواهبه بطريقة مصطنعة^(١) . ومحاورات أفلاطون تصور لنا نقاد سقراط المراضين يتهمون به هذا التصنع الكاذب لأنه دائماً يضع نفسه موضع الباحث المتواضع من الحقيقة ، يريد أن يجلس عند أقدام أولئك الذين أوتوا من المعرفة أكثر منه ، بينما الواضح هو أنه أرجحهم عقلاً . ومن ثم يؤخذ إنكاره لمواجهه على أنه معاذير كاذبة يبرر بها قصر نفسه على مهمة هينة هي عرض نقائص الآخرين . أما أفلاطون فيعتقد بلاشك أن اعترافات سقراط جادة إلى أبعد حد . فهو يصف نفسه بالجهل لا شيء سوى أنه لا يرى قيمة كبيرة لتلك الحكمة التي يفاخر بها بعض معاصريه . إن لديه المعيار المستوى الذي ينبغي أن تكون عليه المعرفة الحقيقية ، ومن ثم يدرك إلى أي مدى يقصر هو والآخرين كلهم عن بلوغ هذا المستوى الرفيع . ومن هنا كان هو وحده الذي يرى نفسه والآخرين جميعاً في مواضعهم الحقيقية ، فتثير كائن سخريته المقارنة بين ما يزعمه الناس لأنفسهم وما يقدمون عليه بالفعل . ويبدو أن استخدام المتصوفة في كل زمان ومكان للغة الرمزية المستمدة من الانفعال الجنسي للتعبير عن معان صوفية ، يعير إلى صلة حقيقية بين المزاج الصوفي والمزاج الشهواني . ومن الواضح أن سقراط

(١) اتملج في لغة الأساطير اليونانية هو الذي يتجمل فيه الدهاء في عالم الحيوان . أما (الإنسان الساهر) في كتاب (الأخلاق) لأرسطو فهو الرجل الذي يتخذ كلامه صورة مؤذية بظاهره بالتواضع الكاذب ، والمخط من قدر نفسه وكل ما يتصل بشخصه على غير إخلاص منه في ذلك . ويقد أرسطو مقارنة بين موقف هذا المخط من الناس وموقف الرجل النجور بنفسه وبين رجل آخر وأبه الصراحة والصدق دون تكلف ودون (شعور بالذات) .

لم يكن استثناء من هذه القاعدة . وقد نتج عن العادات التي كانت سائدة في الأوساط العليا في عصره ، أن التشبيهات التي كان يستخدمها قد استمدت للعلاقة الغرامية بين أشخاص من جنس واحد (الغزل بالمذكر) وأبرز الأمثلة على ذلك نجدتها في كتابات أفلاطون عن العلاقة الشهيرة بين سقراط وبين ألكيبادس الذي ينتمى لنفس قريته ، والذي كان يصغر سقراط بما يقرب من خمسة عشر إلى عشرين عاماً^(١) . فهذه العلاقة التي لا بد أنها بدأت حين كان ألكيبادس ما يزال طفلاً وسقراط قد تجاوز الثلاثين ، يعبر عنها أفلاطون بلغة العاطفة الغرامية ويؤيد أفلاطون في ذلك عبارة ما تزال باقية بين أيدينا وضعها أسكينس على لسان سقراط في محاورته المسماة ألكيبادس^(٢) . وطبيعي أن يلتزم زينوفون الصمت في أمر علاقة سقراط بألكيبادس ، إذ كانت هذه المسألة - كما سنرى فيما بعد - إحدى التهم التي أثيرت ضده في المحاكمة . ولكنه يتفق مع أفلاطون في القول بأن سقراط كان يستخدم عبارات مجازية وهو يتحدث عن نفسه ، إذ يصف نفسه مازحاً بأنه طيلة حياته ضحية لإيروس (الشهوة) وأستاذ في فن الحب^(٣) ، ويوضح كل من أفلاطون وزينوفون أن عباراته هنا على سبيل الدعابة ، وينبغي أن نكون على حذر

(١) انظر بصفة خاصة محاورته (برتاخوارس ٤٨١ د) وأهم من ذلك جميعه تلك القصص الموضوعة على لسان ألكيبادس نفسه في (المأدبة) .

(٢) انظر البقرة الواردة في ألكيبادس تأليف أسكينس (شذرة ٤ ، كراوس) حيث يجري على لسان سقراط مقارنة بين حبه لألكيبادس والعاطفة المشبوبة بحب النحر

(٣) بنس النظر عن إشارات أفلاطون المتكررة في هذا الصدد ، انظر إشارات زينون الغزلية التي تؤدي إلى نفس المعنى في (المأدبة ٨٤٨) و (الذكريات ٣ ، ١١ ، ١٦) وما بعدها -

من إساءة فهمنا . وإن طهارة سقراط الخلقية المتعلقة لمى الافتراض الذى تقوم عليه قصة التجربة الشريرة التى تجرى على لسان ألكيبادس فى محاوره ، المأدبة ، كما أن كل الهدف المقصود من المحاورتين الغراميتين الكبيرتين اللتين ألفهما أفلاطون ، وهما : المأدبة ، و « فيدروس » ، وهو تخلص ، الحب الصوفى ، من أوضاع الحب الحسى أو الشهوانى ^(١) .

يفغنى إذن أن نتصور سقراط فى أيام شبابه على أنه عبقرية أصلية ، بل شخصية جمعت بصورة فذة بين المحب المتوقد العاطفة والصوفى المتدين ، والمفكر المشغوف بتحكيم العقل فى كل شيء ، والساحر الفكه . وعلينا — بقدر ما نستطيع أن نعتمد على المصادر المتبقية بين أيدينا — أن نرسم صورة كاملة عن أثر الحياة العقلية فى عصر بركليس على مثل هذه الشخصية وإنها لمهمة شاقة عسيرة ، ولكنى أعتقد أن فى مقدورنا القيام بها إذا وثقنا بما يعطينا أفلاطون من دلائل ، وفسرنا الشواهد الأخرى فى ضوءها .

والواقع أنه ربما كان علينا — فى نقطة معينة — أن نحسب حساب هامل تأثر به سقراط من جيل سابق لجيله ذلك أن سقراط فى محاورات

(١) كان أمراً هاماً فى هذا السياق أن يذكر أن (إف - د - النشء) الذى اتهم به سقراط لم يكن له حلة بهذا اللون من العلاقة مع الصغار . ومن المؤكد أن تهم الشذوذ الجنسى الثانى — لو كانت حقيقة — لكانت سلاحاً قاتلاً فى أيدي الذين أغاموا عليه الدعوى . كما أنه من المؤكد أنهم لم يستخدموا مثل هذا الاتهام . وأما الاتهام الحقيقى — كما سنرى بعد — فقد كان (تثقيب) ألكيبادس وأتريباس وشعوايات — من ثم — عن اعتدائهما على الديمقراطية . وإنى لأذكر هذه النقطة الواضحة لأنه قد أسئ فهمها إساءة بالغة منذ فترة قريبة فى مقال فى مجلة

أفلاطون لا يفتأ يشير إلى عقائد الديانة الأورفية Orphic بوصفها الدعامة التي يقوم عليها اعتقاده في خلود الروح وأهمية الحياة الآخرة . ومن الواضح جداً أن تفاصيل الصور الخيالية التي يقصها عن الجنة والنار في «جورجياس» و «فيدون» و «الجمهورية» مستمدة من العقيدة الأورفية . وقد كان أفلاطون أيضاً — كما يتبين من إشارته في محاوره القوانين — يعتبر «أقوال القدماء» — التي تعنى العقائد الأورفية بوضوح — أساطير تشتمل على قس من الحقيقة الدينية الخالدة . ولكننا نرى كذلك من هجومه العنيف على الأساطير والدين المتحللين من الأخلاق في القسم الثاني من «الجمهورية» — وهو هجوم موجه إلى أرفيوس أكثر منه إلى هوميروس — أن أفلاطون يرى أنه في وقت مولده ^(١) كانت الديانة الأورفية قد انحطت إلى تجارة مشينة في بيع الصفح والغفران فليس من المحتمل إذن أن تكون الأورفية الموجودة يومئذ قد أوحى إلى أفلاطون أو سقراط باحترامها ، ومهما يكن من أمر فإن قصائد بندار العظيمة في مدح الديانة الأورفية يرجع تاريخها إلى السنوات التي سبقت مولد سقراط مباشرة ، وهذا يوحي بأنه من المحتمل أن يكون سقراط قد اعتنق

(١) ينبغي أن نتخيل أن المحادثة التي يقوم برسمها كتاب الجمهورية قد حدثت — على أكثر تقدير — في أيام الطفولة الأولى لأفلاطون ، لأن لم يكن قبل ذلك ، حيث إن أخاه أديماتوس Adimantus الذي يظهر في المحاوره شاباً يافعاً ، كان في سنة ٢٩٩ قد بلغ من العمر ما يجعله يأخذ منه مكان الوالد ، كما نرى في سكان (الدفاع) (١٣٤) حيث يذكره سقراط بوصفه قريباً من أقرباء أفلاطون يستطيع أن يملأ بشهادة يوثق بصحتها بشأن الأمر الذي خلقته محبة سقراط في نفس أفلاطون .

الديانة الأورفية حتماً في طفولته^(١)، وظل متأثراً بها طيلة حياته. وهو قول لو صدق لا يمكن أن يفسر لنا الصلة التي ستجدها بين سقراط والفيثاغوريين في طيبة وفيلبوس، كما تفسر لفظة أفلاطون الواضحة في محاوره «أوطيفرون»، على عرض الفرق بين إيمان سقراط وإيمان أوطيفرون المضحك القائم على التعصب المذهبي، كما أنها تفسر أيضاً وجود محاوره من تأليف أسكينس تسمى تيلوجيس Teluges جمع فيها بين سقراط وبين أحد المؤمنين بعالم آخر من ذوى الأخلاق المسفة غاية الإسفاف وجعل سقراط بطبيعة الحال ينتقد مسلكه المروج.

ولاشك في أن روح أثينا بركايز هي المصدر الذي استمد منه سقراط ذلك الإحساس الذي صاحبه طول حياته بأهمية الطاعة الخالصة للسلطة الشرعية، واحترامه للدستور بالغاً ما بلغ من الصرامة والشدّة، وهو الذي أدى فيما بعد إلى معارضة الخروج على الدستور، سواء من جانب الديمقراطية الغاضبة أو من جانب محطى الديمقراطية، معرضاً نفسه لخطر بالغ، وأدى به في النهاية إلى الإذعان لمحاكمة كان من رأى الذين قدموه إليها أنه ينبغي أن يتجنبها، وإلى حكم بالإعدام كان من الهين عليه أن ينجو بنفسه منه، كل ذلك دفاعاً منه عن حق الدولة في تقويم سلوك مواطنيها. لقد كانت حياته كلها مثلاً بارزاً لذلك اللون من احترام

(١) يجب أن نتذكر أن الديانة الأورفية لم تكن ديانة لجماعة سياسية، فقد كانت — كما لقائده الحديثة — تحتذب أنصارها عن طريق اندراج هؤلاء في طقوسها من تلقاء أنفسهم وأنها كانت (دونية). وقد مزج الفيثاغوريون الأوائل بين علومهم وبين ديانة مشابهة قائمة على عقيدة خلود الروح.

القانون ، الذى درجنا على الاعتقاد بأنه ممة رومانية لا إغريقية ، ومع ذلك فهو احترام برى . - بصورة فريدة - من الرذيلة الرومانية المحيطة به ، التى تعظم نصوص القانون أكثر من روحه .

ونحتاج أن نقول أكثر من ذلك عن الجو الفكرى فى المجتمع الذى أمضى فيه سقراط صباه وشبابه الباكر ، وتأثير هذا الجو عليه والحقيقة الهامة التى ينبغى أن نجعل بالنسبة إليها هى أن ما اكتسبته أثينا من أهمية سياسية وتجارية أيام كيون وبركليز جعلها - مثل لندن فى وقتنا الحاضر - عاصمة عظيمة ، وموتلا يقصده مفكرو العالم بعد عصر الإسكندر ، فقد أصبحت مركزاً لتنقيح الأفكار من كل نوع ، وهذا هو السبب الذى يسر لأفلاطون فى القرن التالى أن ينشئ فى أثينا أكاديمية أصبحت مركزاً دولياً ، للتعليم العالى ، وهو السبب فى أننا حين نسمع عن علوم الإغريق القدماء وفلسفتهم نفكر على الفور فى مدارس أثينا ، على الرغم من أن الفلسفة والعلم فى الواقع قد نشأ أول ما نشأ خارج أثينا ، وكانا بعيدين كل البعد عن الطابع الأثينى إلى حد أننا نجد أن سقراط وأفلاطون هما الفيلسوفان الأثينيان الوحيدان اللذان لهما اعتبار .

لقد كانت الفلسفة والعلم - وإلى ذلك العهد لم يكن قد تميز أحدهما عن الآخر - من ابتداء العقل المتشوق للمعرفة ، الذى اتسم به إغريق المدن الأيونية الكبرى على ساحل آسيا الصغرى الذين أخذوا على عاتقهم منذ حوالى سنة ٦٠٠ ق . م فصاعداً ، أن ينشئوا نظرية مترابطة عن العالم من حولهم قائمة على أساس التفكير العقل . وفى خلال جيلين اثنين

من بدء الحركة العقلية ، انتقل هذا الدافع إلى الجماعات الإغريقية في جنوب إيطاليا على يد رجل من أعظم العباقرة الأيونيين ، هو فيثاغورس المؤسس الحقيقي لعلم الرياضيات ، ونشأ عن ذلك أن ظلت أهمية الغرب تزايد باستمرار وسرعة عن أهمية الشرق بالنسبة لنمو الفكر الأوربي في المستقبل (يقصد غرب اليونان وشرقها) . وقد كان أول ما أثار اهتمام العلماء الأيونيين الأوائل هو العالم الأعلى فوقنا ، أى تلك الأجرام السماوية التي تبدو متحركة بطريقة معقدة محيرة ، ولسكنها في الوقت ذاته منظمة بقانون موحد يتمنى المرء لو أنه أدرك سره . وقد أدى ظهور الطب اليوناني يومئذ إلى إحلال التأمل في علم الحياة مكان الصدارة في دنيا العلوم ، بدلا من التأملات الفلسفية ، بينما كانت الرياضيات قد أحرزت درجة كبيرة من التقدم وأوحت إلى الفيثاغوريين بأن علم الأعداد ذاته ربما كان مفتاح أسرار الكون^(١) وفي الوقت الذي كان فيه سقراط يشارف عامه العشرين ، كانت النظريات الشرقية والغربية عن الكون تتبلور في صورتين متعارضتين . وكانت ، أبرز فقط الخلاف وأوضاعها

(١) يورد افقارى^{*} الإنجليزي أجمل عرض عام لحركة النمو الفكري كالملى قرب سنة ٤٥٠ ق.م . في كتاب بيرنت «الفلسفة الإغريقية» الجزء الأول ص ١-١٠١ . ويمكن الحصول على تفصيل أوفى في كتاب آخر المؤلف بعنوان «المراحل الأولى للفلسفة الإغريقية» (الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٠) أو في كتاب «ب تازى» للسمى «تاريخ العلم الهليني» (الطبعة الثانية سنة ١٩٣٠) . انظر كذلك كتاب «ج . لوبيا» بعنوان «تاريخ العلوم الرياضية في العصر القديم بعد الإسكندر» (باريس سنة ١٩٠٩) إذا أردت مرصاً مختصراً في الموضوع . ويبدو واضحاً أنه ما كاد سقراط ينتع سن الشباب حتى كان علماء الهندسة الإغريق على بينة من المسادة العلمية التي جاءت في كتاب لأقليدس أجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦

هي الخلاف على شكل الأرض ومكانها في الفسق الذي ترسمه كل من
النظريتين الفلسفتين . وكانت الفكرة العامة الشرقية أن هناك مادة واحدة
يتكون منها كل شيء بما في ذلك عقولنا ، تلك المادة هي « الهواء » وكان
المقصود بالهواء الضباب أو البخار . فكل شيء « ضباب أو بخار »
ويبرز الاختلاف بين الأشياء إلى سبب بسيط هو اختلاف درجة
التركيز والتداخل في هذه المادة . حتى « الروح » البشرية هواء ، إذ أنها
في الواقع ذلك الجو المحيط بنا ، الذي نجذبه إلى داخل أجسامنا بالتنفس ،
وهذا هو السبب في أننا لا نتمتع بالحياة والإحساس إلا مادامنا
ننتفسر ، والسبب في أننا « نلفظ النفس » حين نموت . والأرض - وهي
كتلة ضخمة من الهواء شديدة التركيز تقع في منتصف « عالمنا » أو النظام
النجمي - عبارة عن قرص عريض يسبح في الهواء الموجود تحتها كما
يسبح ورقة الشجر على سطح الماء . وكما أن هذه النظرية الشرقية كانت قائمة
على مبدأ تفسير الكون المادي على أساس عنصر واحد ، فقد كانت
النظريات الغربية المعارضة لها تقوم على مبدأ الثنائية أو تعدد عناصر
الكون المادي . وأشهر هذه النظريات لدى القاري « العادي اليوم نظرية
أنيادوقليس Empedocles مؤسس المدرسة الطبيعية في صقلية ، الذي
نادى بأن الأشياء في تركيبها ، أبعد شيء عن أن تكون « هواء » ، في حالات
مختلفة من التركيز ، فهي جميعاً مكونة من أربعة « أصول » أولية : (وهي
العناصر كما سميت في مرحلة نائية) هي النار وهواء الجو والماء والتراب .
وثمة اختلاف هن النظرية الشرقية أبرز من سابقه . ذلك هو نظرية

الفيثاغوريين الذين حاولوا أن يتصوروا الأشياء بطريقة رياضية خالصة، بوصفها أشكالاً كثيرة مؤلفة من « وحدات ، أو « نقط ، تنظم في أنماط هندسية خاصة في « مكان ، يحيط بها ، لا يسهل تمييزه من الضباب أو الظلمة ، وكان الفيثاغوريون قد استكشفوا كروية الأرض وما يقرب على ذلك من استحالة تصورها ساجحة على شيء تسقند إليه . وقد رجعوا إلى فكرة أنكسمندر Anaximander البارة إذ قال في أول عصر العلم الأيوني — رغم اعتقاده بأن الأرض تشبه الطبله — إنها ليست قائمة على عمد إطلاقاً ، بل تدور في حركة طليقة في مركز النظام النجمي كله ، لأنها موضوعة في مكانها بنظام متوازن دقيق ، ولذلك فليس هناك ما يدفعها إلى أن تميل في جانب أكثر من ميلها في جانب آخر . والصدام الحاد الذي وقع بين النظريات الشرقية والغربية على شكل الأرض مثل طيب لحالة التفكير العلمي في منتصف القرن الخامس . ولقد بلغ من حماسة الإغريق في البحث العلمي مدى قرن ونصف قرن من الزمان أنه لم يعد هناك شيء ثابت — كما وضع أفلاطون على لسان سقراط في محاوره فيدون — فيما عدا شيئاً واحداً ، هو أنه إذا كان أحد الفريقين المتعارضين على صواب ، فالآخرين جميعاً لا بد أن يكونوا مخطئين^(١) .

ولم تكن هذه الأقوال المتناقضة التي تنادى بها المدارس العلمية المتعارضة هي الشيء الوحيد الذي يبلبل الأفكار ، فقد كان هناك ما هو أشد من ذلك بلبلة للفكر ، وهو النقد العديدة الذي كان يوجه إليها

جميعاً الفيلسوفان الإليان . پارمینیڈس وتلمیذہ زینون . فقد بدأ پارمینیڈس بتطبیق المبدأ العقلی القائل بأن ما لا يمكن التفكير فيه من غير الوقوع في التناقض لا يمكن أن يصدق . وانتهى إلى أن الحركة والتغير اللذين هما الخاصيتان الرئيسيتان للعالم كما يصفه العلم ، متناقضتان في ذاتهما ، ومن ثم فلا بد أن يكون الوجود حقاً شيئاً « مطلقاً » مفرداً . متوحد المظهر غير متغير^(١) . وما دامت الطبيعة كما يراها علماء نظام الكون ليست هذا الكيان المطلق بل مسرحاً للحركة وتحول دائمين ، فلا يمكن أن تكون الطبيعة إلا مجرد وهم . أما زینون فقد نقل الحرب إلى قلب معسكر الأعداء حين أخضع مبادئ الفيشاغوريين الرياضية لبحث فاحص ، بدا منه أن التفكير الرياضي ذاته مجموعة من المتناقضات . وفي الحق أنه أدى إلى إعادة تكوين المفاهيم الرياضية الأساسية ، وهي عمالية بدأت في عهد أفلاطون ، ولم تكند تنتهى إلا في عصرنا الحاضر^(٢) . وكان من أثر هذه الحملة على الأساس الأولى المعرفة العقلية ، والتي كانت في ظاهر الأمر حملة من العسیر تفنيدها ، أنها أدت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى یأس شامل واسع المدى من مجرد إمكان الوصول إلى معرفة العالم الطبيعي وما بلغ سقراط العشرين من عمره حتى كان أبرز الرجال

(١) تصور پارمینیڈس هذا « المطلق » في سذاجة على أنه كرة مادية صلبة . ولكن هذه مجرد نقطة تاريخية .

(٢) مفارقات « زینون » المشهورة عن « أخيل » و « البهم الطائر » وبقية التناقضات تنتمي كلها إلى هذا الحد . وأكمل دراسة أعرفها لأهمية هذه البحوث وتأثيرها هو كتاب هاس

H. Hasse ه . شكولز Scholz السمي Die Grundlagen der griechischen mathematik الطبوع في برلين سنة ١٩٢٨ .

وأوسمهم علماً ينفرون من اتخاذ الكون المادى موضوعاً للبحث . ويكاد يكون المفكرون من الطبقة الثانية وحدهم هم الذين مضوا « برقعون » الأفكار القديمة محارلين التأليف بينها . أما رجال الطبقة المبرزة من أمثال بروتاجوراس الأبدري ، فقد أخذوا يوجهون أفكارهم وجهة جديدة . ففي عصر اقم بالتقدم السريع في النواحي الخلقية والسياسية ، أحس الناس بالحاجة إلى مبادئ تدرس دراسة وافية وتصاغ صياغة واضحة ، في التشريع والسياسة والسلوك الفردي في الحياة ، لتحل محل الاعتماد على العادات والتقاليد ، وهنا بدا أن هناك مجالاً مفتوحاً يمكن أن يؤتي ثماره باستخدام الفكر في هدف حقيق ، وهذا هو الذى يفسر نشوء مهنة جديدة هي مهنة السوفسطائى أو « المعلم » الذى يتناول أجراً على مهنة التعليم ^(١) ، إذ وجد طائفة من الناس الذين كان يمكن قيل ذلك بتقليل أن يكونوا مكين على دراسة الطبيعة (Nature) ، حرفة جديدة مجزية في الترحال من مدينة إلى أخرى يدينون للناس « الفضية » أو « الصلاح » أى العلم بالطريقة التى « يدبر الإنسان بها شئونه الخاصة وشئون مدينته على الوجه الأكمل » ، وهى على وجه التحديد

(١) كانت النظرة في ذلك الوقت تعنى ببساطة ما كان الأسلاف في عهد الملوك آن يهتمون من كلمة *wis* أى « الفطن » وتشمل أصحاب النظريات في علم فضاء الكون كما تشمل العلماء الإنسانيين ، ولا ينبغى أن تفهم منها أى معنى خلقى ذمى من المعانى التى توحى بها كلمة « سوفسطائى » أو « السفطة » ف استعمالنا الحديث ، فقد ابتدع إيسوقراط وأفلاطون فيما بينهما هذه المعانى باستخدامهما النظرة للدلالة على من يدعى الفسفة زوراً وهو منها براء . وفى أيامها كان قد انتهى عهد المعلمين الجوالين .

تلك المعرفة التي كان يسمى إليها بشغف زائد كل شاب يتطلع إلى القوة والبروز. ومن هذه الحركة بدأت الدراسات الإنسانية الأوروبية ، كما بدأت العلوم الطبيعية من تأملات وحكماء ، ملطية Miletus في نظام الكون. وقد كان من شأن السرعة التي قامت بها الديمقراطية الإمبراطورية في أتيكا في عهد بركليز أن جعلت أثينا بطبيعة الحال عاصمة دولية يضمن فيها معلم الإصلاح ، وجود جمهور متعطش لسماعه ، وحصيلة أوفر .

وقد كان الاهتمام القديم بالرياضيات والطبيعة والاهتمام الجديد بالدراسات الإنسانية في القانون والأخلاق كلاهما مثلاً تمثيلاً كاملاً في أثينا في عهد بركليز . وكان أنكساغورس في الواقع هو الذي نقل إلى أثينا العلم القديم في صورته الشرقية ، بما تشتمل عليه من نظرية استواء الأرض ، في طفولة ذلك السياسي القدير (بركليز) . وتقول الرواية التي يسلم بها كل من أفلاطون وإيسوقراط إن أنكساغورس قد كاف بالقيام على تعليم بركليز نفسه^(١) ومن المحتمل أن يكون أنكساغورس قد اضطر إلى ترك أثينا فراراً من حكم صدر عليه بالإعدام بتهمة الإلحاد قبل أن يبلغ سقراط مبلغ الرشد^(٢) . ولكن علوم نظام الكون الشرقية الطراز كانت

(١) يقول أسوقراط بوضوح (xu235) إن بركليز تعلم على اثنين من المعلمين (السوفسطائيين) هما أنكساغورس وديمون Damon ونفس الشيء توحى به العبارات الشهيرة التي يستخدمها أفلاطون في محاوره فيدروس (١٢٧٠) عن فصاحة بركليز وما تدين به من سمو ورفعة لصحته أنكساغورس .

(٢) تضع التواريخ المقبولة لدى عامة المؤرخين فرار أنكساغورس من أثينا التي عاش فيها ثلاثين عاماً ، قبل نشوب الحرب البيلوبونيسية مباشرة ، حوالي ٤٣٢ ق م . ولكن من =

خلال السنوات التالية ما تزال تدرس على يد خليفته أرخلاوس Archelaus ، وكذلك على يد ديوجين الأولوني . وكان هيبيقراط الحيوسى عالم الهندسة الكبير قد ولد مركزه فى المدينة . ويؤكد لنا أفلاطون — وليس ثمت ما يبرر الشك فى قوله — أن بارمينيدس وزينوفون قد زارا المدينة حيث تعرف إليهما سقراط وكان ما يزال شاباً حدثاً . ولا بد أن زينون قد عاش هناك فترة من الزمن إذ نفحه أكثر من واحد من أبناء أثينا البارزين هبات سخية لقاء تعليمه^(١) . وتصور لنا

== الواضح أن هذا لا يتفق مع ما بروه أفلاطون الذى أطلق فى وصف الآمال التى أثارها فى قلب سقراط الشاب ومذهب أنكساغورس القائل بأن « الفل » هو علة النظام فى الكون ، ثم خيبة أمه فيه بعد ذلك . ونصر أفلاطون على أن سقراط لم يعرف بفكرة أنكساغورس إلا من قراءة كتابه (فيدون ٩٧ ب وما بعده) وهو يريد بوضوح أن يقول إن أنكساغورس قد ترك أثينا قبل أن يبلغ سقراط من العمر ما يسمح له بأى اتصال شخصى به . وهذا يتفق كذلك مع القول بأن أنكساغورس قد قام فعلاً « بقرية » بركليز كما يتفق مع التفسير الطبعى الوحيد لما ورد فى أخبار الإسكندرية (ديوجينيس ليرتيوس ٧٤٢) من أنه « بدأ الاشتغال بالفلسفة فى أثينا فى عام كالياس وهو فى العشرين من عمره » وعاش هناك ثلاثين سنة . ولذا كان المؤرخون قد حددوا مولده بسنة ٥٠٠ ق . م . فمضى ذلك أنه جاء إلى أثين فى عام سالامس Salamis (٤٨٠ ق . م) وربما كان قد جاء منخرطاً فى جيش اجزرسيس xerxes وترك المدينة حوالى سنة ٤٥٠ ق . م . (ربما كان اسم الحاكم كالياس فى الذبح التى بين أيدينا تصغيراً لاسم كاليادس Calliades كما يسمى حاكم عام سالامس فى مكان آخر) وتبدو لنا هذه التواريخ ضرورية ، وإن كان تأريخى لها قد وصفه أحد الثقات الأثان بأنه « مستحيل » ويبدو أن التاريخ المأخوذ به لدى المؤرخين مبنى على ما كتبه إيفوروس Ephorus مؤرخ القرن الرابع ق . م . الذى لم يكن ثقة فى رواية الأخبار .

(١) يذكر أفلاطون (فى محاورة لكيادس ١ — ١١١٩) أن كلاما من فيثودوروس Pythodorus بن ليزولوخوس Isolochus وكالياس بن كاليادس قد نفخ زينون مبلها ==

محاورات أفلاطون الأثر الضخم الذى تركته زيارات الزعيمين البارزين للحركة ، الإنسانية ، بروتاجوراس وجورجياس . ولا بد أن بروتاجوراس على أية حال قد وجد طريقته إلى بلاط بركليس ، الذى ضمنه إلى اللجنة التى كلفت بوضع دستور لمستعمرة الهامة فى ثوريى (Thurii سنة ٤٤٣ ق . م) فى جنوب إيطاليا . ويبدو أن زينون كذلك كان من بين أصفائه .

ويبدو من المؤكد أن سقراط قد اكتسب فى أوائل حياته علماً وافياً بما كان فى عصره من علوم ، كما أنه وصل إلى التمكن فى الثقافة الإنسانية السائدة يومئذ . هذا ما يبرزه لنا أفلاطون . وخير شاهد على صدق ما يقول هو أن اعترافات زينون — التى تلقت النظر حقناً — تؤيدها تأييداً كاملاً . وقد كان حريصاً من أجل ما استهدف من دفاع عن سقراط — أن يثبت أن سقراط كان يتخذ وجهة نظره « النفعية » فى العلوم ، وأنه كان يعتقد بأن على الإنسان أن يعرف من الهندسة مقدار ما يعينه على « قياس مساحة قطعة من الأرض يشتريها أو يبيعها ، ولكن دون أن يعنى نفسه « بالرسوم البيانية المعقدة » . ومن علم الفلك مقدار ما يعينه على « تحديد الوقت فى الليل ، أو الشهر أو السنة ليقوم برحلة برية أو بحرية ، أو يؤدى نوبة فى الحراسة الليلية ، دون أن يشغل نفسه

== كبيراً يبلغ مائة مينا . وفيثودوروس — الذى جعل أفلاطون اللقاء بين سقراط وبين بارمينيدس وزينون يتم فى بيته — هو قائد أثينى مبرز فى الحرب الأرشيدامية . وكالياس هو القائد الذى قتل أمام بوتيديا فى أوائل الحرب سنة ٤٣١ ق . م حين كان سقراط بين أفراد الجيش الأثينى .

بالسكواك ، والنجوم السيارة ، وأبعادها من الأرض ومداراتها وأسبابها . ولكن زينون في كلتا الحالتين يضيف على الفور قوله : « ومع ذلك فلم يكن يبدأ عن معرفة هذا الموضوع ، وقوله : « ومع ذلك فلم يكن جاهلا بهذه الأمور ، (وهكذا لم يكن اتجاهه المزعوم هو احتقار الجهل)^(١) . ويحدثنا أفلاطون بأكثر من ذلك في هذا الصدد ، حيث يجرى على لسان سقراط في محاورته فيدون قصة يروي فيها تاريخ حياته^(٢) فنعرف منها أن سقراط قد بدأ حياته متحمسا ، للبحث في الطبيعة ، شغوفة بكشف أسباب حدوث الأشياء وفنائها ، وقد درس النظريات السكونية المختلفة التي كانت شائعة يومئذ ، شرقيا وغربيا . وتشير القصة إلى أنه بدأ بنظريات فيثاغورس ، الاستاذين المعاصرين اللذين يمثلان النقط الشرق في أثنينا وهما أرخلاوس وديوجين الأبولوني وقد اختلف نظرهما بشدة الاختلاف حول شكل الأرض . وكان يعرف المذاهب البيولوجية لابن بادوقليس الصقلي ، ونظريات الفيلسوف الإيطالي التميمون الكروتوني .

(١) زينون (ذكريات ٤ ، ١٤٧ ، ٦) هذه الاعتراضات من جانب زينون ، التي تناقض قصده الرئيسي منقضة مباشرة ، لا يمكن أن تعنى شيئا إلا أن سقراط كان يعرف كل ما يمكن معرفته لذلك عن هذه الموضوعات . ولو أنه كما يقول زينون — كان يعتقد أن هناك أشياء أخرى يعتبر العلم بها ألزم .

(٢) فيدون (٩٦ — ١١٠) هذه الفقرة مع الصفحات الأولى من محاورته بارميدس هي أهم شواهدنا على الطريقة التي تصور بها أفلاطون التاريخ الفكري لسقراط في مقتل حياته . ومادامت هذه الأحداث تقع قبل مولد أفلاطون بما يقرب من عشرين عاما ، فالصورة الطبيعية الحال متخيلة ، أنشأها أفلاطون من المعلومات التي بين يديه ، ولكن كان هناك كثير من الأرائد في محيط أسرة أفلاطون يستطيع أن يستمد منهم المعلومات اللازمة .

Alcmaeon of-Cretona عن المنح بوصفه أداة الحياة العقلية ، وكانت تضايقه كثيراً تلك الصعوبات الرياضية المتعلقة بفكرة الوحدة ، وهي مشكلة أنارهازينون وقد أدى به التعارض الكامل بين أفكار أصحاب النظريات المتعارضة إلى اليأس في مبدأ الأمر ، ولكن فقرة قرئت عليه من كتاب أنكساغورس نزلت على قلبه كأها الوحي ، فقد قال إن العقل ، (السكوني) هو السبب في كل ما للطبيعة من قوانين ونظام ، كما أن العقل (البشرى) هو سبب انتظام الأعمال البشرية وتربطها . وقد أوحى هذا استقراط بأن السكون على اتساعه — مثله مثل الحياة البشرية حين تسير على الوجه الصحيح — هو المظهر المحسوس لتدبير عاقل متسق فإذا كان العقل ، (السكوني) هو سبب تكوين العالم ، فالأرض وكل شيء آخر في السكون لا بد أن يكون له في نظام السكون من الشكل والوضع والمكان ما يعتبر بالنسبة له أفضل شكل ووضع ومكان ، ومن ثم أخذ نفسه بدراسة أنكساغورس على أمل أنه قد وجد فيه المعلم الذي يستطيع أن يضع حداً للاضطراب العلى ، بأن يبين كيف تكون كل دقيقة من دقائق السكون في ، أفضل ، وضع لها ، ومن ثم يبين الوضع الذى لا بد ، أنها موضوعة فيه ، في عالم يحكمه ويدبر شأنه العقل ، (السكوني) . ولكن هذه الآمال سرعان ما تحطمت حين ظهر له أن أنكساغورس لم يدخل العقل ، (السكوني) في فكرته إلا ليوضح الدافع للحركة اللولبية التي ظن أن النظام النجمي قد نشأ عنها ، دون أن ينتفع إطلاقاً بفكرة أن السكون الذى يدبره العقل ، (السكوني) ينبغي أن يكون الصورة المحسوسة

التدبير عاقل . وقد كانت خيبة الأمل هذه التى دفعت سقراط لأن يقول
ساخرا : إن رأسه لا يصلح للعلوم الطبيعية ، وأن يختط لنفسه طريقاً
ومنهاً خاصاً فى البحث .

وعليها أن نبعث طبيعة هذه الطريقة الجديدة فيها بعد حين نستعرض
فلسفة سقراط . أما فى الوقت الحاضر فن المهم أن نلاحظ أن الموقف
الذى نفهمه من رواية أفلاطون هو ، من الوجهة التاريخية ، نفس الموقف
الذى كان قائماً فى أثينا فى فترة شباب سقراط ، وأن أفلاطون حريص
على لفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة بالتفصيلات الوافرة التى يعطينا إياها
عن المذاهب المتعارضة التى توقع الحيرة فى نفس سقراط ، فيقف بينها
متربداً . ومن الواضح أن أفلاطون لا يروى تاريخ شبابه هو ، فقد تغير
الموقف الفكرى تغيراً تاماً على عهده ، وصارت النظريات التى يتحدث
هنا متهجورة^(١) . وكذلك لا نستطيع على أساس سليم أن نفترض أنه
يقصد أن يصف دعو عقل فيلسوف ، أيا كان (فليس من أسس عملية الفو
هذه أن يتحير الفيلسوف فى مسألة شكل الأرض) ولكن من الواضح
أنه يقص علينا ما يعتقد أنه الحق عن الأزمة الفكرية فى حياة بطله سقراط .
وقد كانت لديه — كما رأينا — فرصة واسعة للتعرف على الحقائق المتصلة
بالموضوع من سقراط نفسه ومن الآخرين . ولستطيع إذن أن نطمئن
بدرجة معقولة إلى أن ما يقصه علينا دقيق فى جوهره . وإذا كان لا يعطينا

(١) ولا نحتاج أن نذكر أن أفلاطون — حسباً يروى عن نفسه — لم يكن يطمح فى شبابه
لك أن يكون من طلبة الدراسة والعلم ، وإنما كان يود أن يصبح من رجال الأعمال .

بطبيعة الحال أية تواريخ محددة أكثر من أن هذه الأحداث وقعت في مقتبل حياة سقراط ، فما لاشك فيه أن الثورة الفكرية التي يصفها في صفحة أو صفحتين ، ربما قد استغرقت وقتا طويلا حتى وصلت إلى تمامها .

وينبغي أن تؤخذ أقوال أفلاطون متصلة بما يؤكد ثاوفر اسطوس^(١) صديق سقراط وخليفته وأقدم من ألف في تاريخ الفلسفة الإغريقية ، من أن سقراط كان حقا عضوا في مدرسة أرخلاوس ، ذلك الأثيني الذي خلف أنكساغوراس ، حين اضطر هذا الفيلسوف إلى مغادرة أثينا . وقد انتقلت هذه العبارة من ثاوفر اسطوس إلى سلسلة الكتاب الإسكندرانيين الذين ألفوا في تاريخ الفلسفة ، إذ اتخذوا كتابه معيناً ينهلون منه ، واثقين أنه لن يكون إلا الصدق بعينه . ومن المؤكد أن ثاوفر اسطوس نفسه كان — على الأقل — موجودا في أثينا أثناء حياة أفلاطون ، وربما كان كما تروى عنه بعض الأخبار — قد التحق بالأكاديمية فعلا . وقد كان كاتبا يتسم بالحرص في مثل هذه الشئون التاريخية . أضف إلى ذلك أن عبارته يؤيدها رجل آخر من أصدقاء أرسطو هو أرسطو جرينوس التارقي ، الذي ألف في النظرية الموسيقية . وقد روى أرسطو جرينوس^(٢) أن الصلة بين أرخلاوس وسقراط بدأت حين كان الأخير في السابعة عشرة من عمره ، واستمرت بضع سنوات . وقد قرن بهذه العبارة قدرا كبيرا من التشنيع هدفه الحط من شأن سقراط . ولكن تفاهة هذا التشنيع

(١) ثاوفر اسطوس ، آراء الطبيعيين ، شذرة ٤

(٢) شذرة ٥ ، (شذرات من تاريخ اليونان ، ٢ : ٢٨٠) .

لا تبرر عدم الثقة بما رواه عن حقيقة اتصاله بأرخلاوس ، يضاف إلى ذلك أننا نعرف أيضا أن إيون الخيوسى Ion of Chios شاعر المأسى فى القرن الخامس قد روى أن أرخلاوس وسقراط قد زارا جزيرة ساموس معا حين كان سقراط شابا يافعا^(١) . وإذا كان إيون قد سجل كذلك فى مذكراته ، مقابلته لبركليز وشاعر المأسى سوفوكليز فى خيوس عام ٤٤١ / ٤٠ ، فمن الظن المحتمل أن تكون القصة الخاصة بأرخلاوس وسقراط مشتقة من السياق ذاته ، وأن إيون قد قابلهما معا وقت مقابلته لبركليز . وكان ذلك فى أثناء ثورة ساموس على الآثينيين ، وحصار الآثينيين للجزيرة . ولا بد من أن نفترض أن أرخلاوس وسقراط (الذى كان حينئذ رجلا فى الثامنة والعشرين أو التاسعة والعشرين من عمره) ، كانا من أفراد القوة الآثينية القائمة بالحصار ، وأن السبب الذى جعل أفلاطون يصحجهم عن ذكر أية إشارة إلى هذا الحادث ، إنما كانت الفرصة سانحة أمامه للحديث عن معارك سقراط ، هو - ببساطة - أن الحادث قد وقع قبل زمنه بكثير^(٢) . ولا يقص علينا أفلاطون شيئا عن هذه العلاقة بين سقراط وأرخلاوس ، ولكن من الواضح أنها تمدنا بالإطار الصحيح

(١) ديوجينيس ليرتيوس (٢ : ٣٤) .

(٢) يستنتج من ذلك أن سقراط كان يقاتل أمام قوة يقودها الفيلسوف الساموسى البرز

لقصته عن المقدمة التي كتبها سقراط للكتاب الذي وضعه أستاذ
أرخلاوس العجوز^(١).

وفيما عدا رواية أفلاطون عن اللقاء بين سقراط وبين بارمينيدس
وزينون ، وخيبة أمه في كتاب أنكساغورس وللعبارة التي أثبتنا نصها
منذ هنية عن علاقته بمدرسة أرخلاوس ؛ فليس لدينا معلومات مباشرة
عن أحداث حياته عن نشوب الحرب الأرشيديامية سنة ٤٣١ . ولكننا
نستطيع مع ذلك أن نستنتج بعض النتائج ونحن على اطمئنان من صحتها .
فن الطيبي أن نعتقد أنه ظل فترة من الوقت على صلته . بأرخلاوس
وأصفياه ، وليس لنا أن نظن أن استغراقه في طريقة البحث الجديدة قد
تم في أسابيع قليلة أو شهور . بل ربما كان لنا أن نخدس أنه عندما اعتزل
أرخلاوس - ولا نعلم متى حدث ذلك - فإن سقراط كان خليفته
في الواقع - وربما بدا لنا ذلك عجيباً غريباً عندما نتذكر الإصرار العنيف
الذي ينفي به سقراط في محاوره الدفاع ، الأفلاطونية أنه كان له أي
تلاميذ ، أو أنه كان في يوم من الأيام معلماً ، لأحد من الرجال . ولكن
هذا يتمشى تماماً مع طريقة أفلاطون في نفى ما يتففيه من أشياء .
فإن الذي يهتم بنفسه سقراط في محاوره الدفاع ، هو أنه احترف في يوم من
الأيام مهنة تعليم الناس ، لقاء أجر ، أو أنه اتخذ تلاميذ^(٢) وهذا يتمشى تماماً مع

(١) المفروض أن الكتاب قد أُلِفَ في السنوات الأخيرة من حياة المؤلف بعد إبطاءه
نهائياً من أثينا . ومن ثم فربما كانت بحوياته جديدة على سقراط ، على الرغم من صلته
بأرخلاوس ومدرسته .

(٢) الدفاع ١٩٥ : « إذا كان قد قيل لكم أنني أتعهد بتعليم الناس وأتقاضى عن ذلك
أجراً فهذا ليس بصحيح » وهي عبارة تمثل الطريقة التي يستخدمها أفلاطون في نفى ما يريد
نفيه (عن سقراط) .

كونه في وقت من الأوقات قبل مولد أفلاطون كان على رأس جماعة من
«الأصفياء» ، يشرف على دراستهم ولكن بلا أجر . (وينبغي أن نذكر
أن اللفظ الذي كان يطلق على طالب علم كهذا بمدير الجماعة وقائدها لم يكن
«mathetes» ، التي تعني «التلميذ» ، وإنما كان «hetairos» ، التي تعني المرافق
«أو الصني» ، والفرق كائن في معنى الاحتراف الذي يوجد في اللفظ الأول
ولكنه لا يوجد في الأخير) . وهناك في الحقيقة مجموعة كبيرة من
الشواهد تدل على أن سقراط في أيامه الباكرة كان حقا أشبه شيء برئيس
«مدرسة» ، منظمة .

وواضح أن هذا هو لغوى الصورة الهزلية التي رسمها أرسطوفان في
مسرحية «السحاب» ، فهناك يصور سقراط تصويراً ساخراً على هيئة
رئيس لمجموعة من الطلبة — تصفهم المسرحية الساخرة بطبيعة الحال
بأنهم «تلاميذ» — يعيشون معه في منزله ، ومن المسلم به أنهم مزودون
بما تحتاج إليه مدرسة عليمة من خرائط وأجهزة . وهؤلاء النزلاء في مصنع
الأفكار ، كما يسمى أرسطوفان منزل سقراط ، يصورون وقد جمعوا بين
طبيعتين : فهم جماعة من الزهاد والجياع المؤتزرين بالمرقات ، تغلب
عليهم نزعة «روحانية» ، غير عادية ، وهذا يفسر السبب في استقبالهم
بالضحكات المدوية حين يطلق عليهم اسم «أحكم الأرواح» ^(١) وهو تعبير
كان في أثينا القديمة في القرن الخامس يعني «العفاريات» . وهم كذلك من

(١) أرسطوفان . السحاب . ٩٤ .

المتعلقين بعلوم الفلك والجغرافية وعلم طبقات الأرض^(١) ، ويدينون بمذهب في علم نظام الكون نعرف فيه على الفور مذهب ديوجنيس الأبولوني Diogenes of Apollonia الذي يفسر كل شيء على أنه مكون من «الهواء» ، وهذا هو السبب في تصويرهم على المسرح يصلون للسحب ، وهو كذلك السبب في أن سقراط يقوم بتأملاته وهو يتأرجح معلماً في آلة من نوع معين ، ليحفظ الهواء الذي يتكون في عقله من الاختلاط برطوبة سطح الأرض^(٢) . ومن الصعب أن نفهم لمسرحية ساخرة من هذا النوع معنى إلا إذا كان هناك أساس من الواقع وراء هذه الصورة المشوهة . فإذا اعتبرنا هاتين الحقيقتين : وهما أن سقراط كان يؤمن بمعتقدات قريبة من معتقدات الأورفيين في خلود الروح ، وأنه في فترة من فترات حياته كان هو الشخصية البارزة التي تزعم جماعة من الطلاب يدرسون علم نظام الكون ، ويعتقدون وجهة النظر التي سميناها الفخرية الشرقية ، فإن صورة أرسطوفان الهزلية تصبح ذات معنى . أما إذا لم نسلم بهذا الأساس فإنها في الواقع تصبح خاوية من كل دلالة^(٣) .

(١) أرسطوفان . السحاب ١٨٤ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٢٢٥ وما بعدها .

(٣) وهكذا نرى أن هناك هدفاً ساخراً في جعل الدير أوليفرودج بطلاً لمسرحية ساخرة من هذا النوع . ولم يكن ليصبح له معنى لو أنها أسندت «مثلاً» إلى المتر تشسترون . ومن شاء أن يدرس مسرحية السحاب دراسة مفصلة من وجهة النظر هذه في إمكانه أن يرجع إلى مقال بعنوان The Phrontisterion في كتابي السمي منوعات سقراطية Varia Socratica (طبع أكسفورد) ص ١٢٩ وما بعدها .

وهناك قسم من ذكريات^(١) زينون له قيمة خاصة ، لا بد أنه يشير إلى فترة من حياة سقراط الباكورة ، نستطيع أن نستمد منها بعض الضوء نلقيه على الحقيقة الماثلة وراء صورة أرسطوفان الهزلية . فقد كان أنتيفون Antiphon السوفسطائي — كما يقول زينون — حريصاً على اقتزاع تلاميذ سقراط واجتذابهم إلى جانبه . (ولا نعلم التاريخ المضبوط لأنتيفون ، ولكن من المؤكد أنه من الشخصيات التي برزت في أيام الحرب الارشيدامية) ومن ثم فقد وجه إلى سقراط نقداً علقياً مغرضاً على مسمع من رفقاته . وقد علق — أولاً وقبل كل شيء — على حياة الزهد التي كان يحياها سقراط ، وعلى ملابسه الرقيقة وقدميه الخافيتين وطعامه الهزيل ، وهي خصائص أبرزها أفلاطون وزينون كما أبرزها أرسطوفان وزملاؤه من الهزليين . وقد انتقده زيادة على ذلك لأنه رفض أن يأخذ أجراً من رفقاته على الخدمات التي يؤديها لهم ، وكانت حاجته في ذلك أن الخدمات التي تؤدي بلامقابل قد لا تقدر لها قيمة . وقد جعل سقراط يرد على هذه النقطة الثانية بأن يعقد مقارنة بين ، صاحب القطنة ، الذي يبيع علمه والمخنث الذي يبيع ، جاذبية سحره ، ثم يشرح على وجه أدق طبيعة العلاقة بينه وبين أصفياه الممار إلىهم بطريقة تظهر للبلا أنها ليست من النوع الذي يجوز أخذ الثمن عليه فيقول : « إن الصديق الصالح يمنحني نفس السرور الذي يمنحه القرم الطيب أو الكلب أو طيور الصيد لرجل من طراز آخر ، بل أكثر . فإذا

(١) زينون ، ذكريات ، ١ — ٤ .

عرفت شيئاً صالحاً فإني أهله لأصدقائي وأقدمهم لآخرين أتوسم فيهم أنهم سيقدمون لهم نفعاً . وأضرم نفسي إلى أصدقائي في الكشف عن كنهوز الفطنة القديمة ، التي تركها الأقدمون في أوراق مسطورة ، فإذا وجدنا فيها شيئاً صالحاً التقطناه ، وأحسنا أننا كاسبون كسباً عظيماً إذا أصبحنا أصدقاء^(١) . وسقراط الذي نراه هنا على النقيض من الرجل الذي يحمل رسالة لكل الناس . ذلك الرجل الذي نعرفه جيداً من حديث أفلاطون وزينون ، بما وعته ذاكرتهما من ذكريات شخصية عنه . فهو على وجه التحديد يطلب العلم على أصحاب الفطنة من القدماء ، الذين كانوا بغير شك هم فلاسفة الماضي وعلاؤه ، وحوله حلقة من زملائه طلبة العلم تختلف تمام الاختلاف عن الشباب الخلى البال من الأسر الغنية الذين تحلقوا حوله في سنواته الأخيرة — كما يقول أفلاطون — ليستمتعوا بالاستماع إليه وهو يعرض بمجمل الشخصيات البارزة^(٢) . وإن علاقته بهذه الحلقة كوجهه لأبحاثها ودراساتها لمي علاقة يسهل على أنثيقون أن يخلط بينها وبين المعلم ، المحترف . وواضح أن زينون هنا قد حفظ لنا ملاحظة هامة مستمدة من أحد رجال سقراط السابقين على عهده ، وإنها لكافية في إثبات أن « مصنع الأفكار ، الذي تعرضه مسرحية « السحاب » هو مسخ — من أجل الهزل — لشيء له وجود حقيقي .

ومن المهم أن نذكر أن شهرة سقراط من حيث هو رجل ذو قوة

(١) المرجع السابق ، ١٤٤ .

(٢) أفلاطون — الدفاع — ٢٣ .

فكرية غارقة ، لا بد أن تكون قد توطدت أركانها في ذلك النصف الأول من حياته ، وأن علاقته بالسوفسطائيين المشهورين — بصفة خاصة — لا بد أنها ترجع إلى هذا التاريخ . وهذا هو الذى يستفاد بوضوح من كتابات أفلاطون في أكثر من موضع . فالصدام العنيف بين سقراط وپروتاجوراس Protagores وهو أبرز السوفسطائيين ، ذلك الصدام ، الذى يصفه أفلاطون في أروع محاوراته من جهة الفن المسرحى ، مفروض فيه أنه حدث قبل أن تنذر الأمور بنشوب الحرب الكبرى . والسكيادس الذى حارب في صفوف الفرس في معركة بوتيدا Potedaea^(١) يظهر في محاوره « بروتاجوراس » وهو ما يزال على أبواب الرجولة . و« أصحاب الفطنة » البارزون — وبعضهم ينتمى إلى مدن صارت فيما بعد « دولا أعداء » في الحرب — كلهم مجتمعون في منزل كاليبس Callias في إخم و سلام . هذا ، ومن المسلم به في هذه المحاوره أن هؤلاء جميعاً يعرفون سقراط معرفة شخصية . بل إنه ليشير^(٢) — كما فعل أكثر من مرة في مواضع أخرى من مؤلفات أفلاطون — إلى أنه قد استمع إلى إحدى محاضرات بروديكوس Prodicus الأقل نفقة . وكان بروتاجوراس على الأخص قد تعرف إليه قبل ذلك بسنوات . وهو هنا يطريه بقوله إنه قد وجد فيه يومئذ أقدر من رآه في مثل تلك السن (يقصد السن

(١) أفلاطون — المأدبة ٢٢٠ د — هـ

(٢) بروتاجوراس ٢٤١ راجع محاوره خرميدس ١٦٣ د ، مينون ٩٦ د ، وأقراطيلوس ٣٨٤ ب . ولا معنى لهذه الإشارات إذا لم تكن تشير إلى حقيقة واقعة .

الصغيرة) وإنه واثق أشد الثقة في مستقبله^(١) وعلاقات سقراط بهؤلاء الرجال — كما يصفها أفلاطون — ترجع إلى الفترة الأولى من حياته قبل أن يبدأ رسائله — وإن كان الباحثون كثيراً ما يفتلون هذه النقطة — ولم تكن تلك العلاقات إلا علاقات صداقة ومودة . ولا يُذكر السوفسطائيون مرة واحدة في محاوره المدافع بين الطوائف التي أصبحت منافستها ومماجتها جزءاً من رسالته ، فهم يعجبون بمقدرته ، وإن كان في هذا الإعجاب شيء من الإدلال عليه وإظهار العطف ، وموقفه منهم هو مزيج له طابعه الخاص من الاحترام لجمودهم الصادقة ، والعجب المؤدب من الرضا النفسي الذي يجعلهم خافلين عن مواضع قصورهم .

ولدينا — كما أوضح بيرنت — بالإضافة إلى ماضى شواهد أخرى غير مباشرة على المكانة البارزة التي أحرزها سقراط لنفسه قبل أن يبلغ الأربعين من عمره في الدوائر الفكرية على محيط واسع خارج أثينا . ونعرف من محاوره فيثون^(٢) الأفلاطونية أسماء الأشخاص الذين كانوا موجودين إلى جواره في فراش الموت ، واسم واحد أو اثنين من الآخرين الذين كان يتوقع حضورهم . وفي كلام زينون ما يؤيد أن كثيراً من هذه الأسماء هي أسماء أصدقاء لسقراط . وكان بين الحضور على الأخص شابان من طيبة هما سيمياس Simias وسيفيس Cebes اللذان

(١) بروتاغوراس ٣٦١ هـ لأن السبب الوحيد الذي دفع بروتاغوراس في المحاوره إلى أن يلبس إلى سقراط ليبرفه بالرجل العظيم هو أن سقراط يعرف بروتاغوراس تمام المعرفة من قبله .
(٢) ٥٩ ب — . . .

كانا في يوم من الايام من تلاميذ فيلولاوس Philolaus الفيثاغوري «
والاثنان الإيليان من ميجارا وهما إقليدس وتريون Terpion . ويسمى
زينون كلا من سيمياس وسيبيس من بين الرجال ذوى الأقدار العالية
الذين كانوا يترددون على سقراط حرصاً منهم على الخير الذى تصيبه
أرواحهم . وكان أرسطيوس Aristippus القورينائى السيد الممذّب الذى
يعتبر العالم كله وطأ له — ولو أنه لم يحضر إلى سقراط بالفعل — كان
على صلات وثيقة به إلى حد شعر معه أفلاطون أنه لا بد أن يفسر غيابه
بسبب من الأسباب . وقد جعل زينون أرسطيوس — رغم كراهيته له —
عضواً فى حلقة سقراط ، وجعله يتلقى من سقراط لوماً عنيفاً على حياته
العابثة المستهتره^(١) . ويظهر أفلاطون اهتمام الفيثاغوريين الخاص بسقراط
بأن يجعل فيدون الأليزى هو الذى يحمل نبأ وفاة سقراط إلى أشقراط
Echecrates الفيلاوسى الفيثاغورى وجماعة من الرفقاء لا نذكر أسماءهم .
ويصورهم على أنهم من المعجبين المتحمسين ، المتلمذين على سماع قصة مفصلة
عن الملاحظات الأخيرة للرجل العظيم . هذا وقد كانت المدن التى ينتمى
إليها معظم هؤلاء — وهى طيبة وأليس وفيلوس — «دولا أعداء» فى
أثناء الحرب البيلوبونيزية التى ظلت — رغم السلم، التى تقررت اسماً سنة
٤٢١ ق . م — ناشبة على الدوام تقريباً منذ بلغ سقراط الأربعين.

(١) «ذكريات» i. ii وربما كانت العداوة التى تظهر فى هذا الفصل تجاه أرسطيوس مثلاً
حقيقياً لتأثير أنتستانس Antisthenes على زينون . وقد كان على سبيل اللوم والتعذير
لأرسطيوس أن قس عليه سقراط حكاية «اصطفاء هرقل» التى يقول زينون إنه أخذها من
محاضرة أبروديكس Prodicus .

من عمره حتى السادسة والستين . ويبدو من المنطوق إذن أن صلاته بكبار السن من بين هؤلاء الفلاسفة غير الالبيين لابد قد بدأت قبل بلوغه الأربعين ، وأن الجماعة الفيثاغورية المتفرقة في أنحاء شتى من العالم الإغريق لابد أنها كانت تنظر إليه في تلك الأيام على أنه معلم يتمتع في نفوسهم بالهبة والاحترام الشديد . وإلا فمن الصعب علينا أن نفهم حرص الشبان من تلاميذ فيثاغورس الموجودين في طيبة على أن يسارعوا إلى محبته بمجرد أن مكثهم من ذلك انتهاء الحرب الكبرى . وهذا اللون ذاته من « السمعة العالمية » ، هو ما تتضمنه الملاحظة التي حفظها لنا أسكينس Aeschines حين قال إن أول ما اجتذب أرسطيبوس القورينائي إلى أثينا كان « شهرة سقراط » ^(١) . وواضح من مدلولات هذه الوقائع كلها أن سقراط — على عكس ما تصوره بعض المؤلفات الحديثة — كان منذ مرحلة باكورة في حياته قد نال شهرة واسعة بوصفه شخصية بارزة في الدوائر الفكرية خارج أثينا . وهذا يتفق بدقة مع ما قرره أفلاطون عن الأثر الذي تركه وهو شاب صغير في نفوس البارزين من « الأجانب » من أمثال پارمينيدس وبروتاجوراس ، ولكنه بعيد كل البعد عن نظرية القرن التاسع عشر المعجبية التي تحولته إلى عبقرى شاذ نشأ في طبقة الكادحين . وهذا الرأي ذاته لمكانته في حياته الباكورة ، هو ما تتضمنه القصة الشهيرة التي يقصها أفلاطون بالتفصيل في محاوره « الدفاع » ، من تصريح

عرافة معبد دلتى بأنه « لا يوجد بين الأحياء من هو أحكم من سقراط »^(١) وعلى الرغم من تشكك قليل من الكتّاب الألمان المحدثين ، فليس هناك موجب معقول للشك فى أن هذه النبوءة كانت حقيقة تاريخية . ولم يكن أفلاطون ليستطيع تصوير سقراط وهو يقض هذه القصة بتفصيلاتها على قضائه — وكثير منهم لابد قد قرأوا محاوراة الدفاع — إذا لم يكن قد تحدث عنها بالفعل ، ولم يكن من العقل فى شيء أن يجعله يروى هذه القصة ويعرض استعداده لتقديم الشهود على صحتها — كما صورته فى تلك المحاوراة — إذا لم يكن ذلك قد حدث بالفعل . وليست هناك صعوبة على الإطلاق فى أن ندرك لماذا نطقت كاهنة دلتى بتلك النبوءة ، وإن كان بعض المؤرخين قد حيروا أنفسهم بشأنها . فسقراط يحدثنا فى محاوراة أفلاطون أن النبوءة أعطيت لصديقه شيريفون Chaerephon الذى ابتدعها بهذا السؤال : « هل هناك بين الأحياء من هو أحكم من سقراط ؟ » ، وكما يحدث فى مثل هذه الأحوال ، أعطى شيريفون الإجابة التى طلبها بصورة مباشرة . والذى نستطيع أن نقيّنه هنا فى واقع الأمر هو كون السؤال قد وجه بالفعل . ذلك أن تقديم السؤال معناه أن سقراط كان لابد قد وصل إلى درجة من الشهرة تمكن أحد المعجبين به من التقدم بهذا السؤال دون أن يجعل نفسه بذلك موضع السخرية من السامعين . فلا يمكن أن يسأل سؤال كهذا إلا عن رجل قد اشتهر فعلا فى الدائرة المحيطة به بوصفه من « أصحاب الفطنة » . هذا ويدين أفلاطون بوضوح أنه يعتقد بأن شيريفون قد تقدم

بهذا السؤال للرافة قبل نشوب الحرب البيلوبونيزيه ، أى قبل أن يبلغ سقراط سن الأربعين . فالمحاورة تجعل سقراط يقرر أن شهرته بين الشباب فى سنواته الأخيرة قد نتجت عن المتعة التى يستمدونها من قيامه برسائله فى عرض جهالة كبرائهم ، كما يقرر أن قيامه بهذه الرسالة كان واجبا ألغته عليه نبوءة الكاهنة . وهذه الشهرة الواسعة فى أوساط الشباب والنشء متضمنة فى محاورة أفلاطون المسماة « خرميدس » Charmides حيث يجعل سقراط ، العائد لتوّه من المعركة التى وقعت أمام بوتيديا (٤٣١ - ٤٣٠) فى مستهل الحرب ، يسأل على الفور عن « حالة الفلاسفة الراهنة » فى أثينا ، ومدى اهتمام « الشباب » بها ^(١) . فالمفروض إذن - بحسب كلام أفلاطون - أن نبوءة الرافاة قد حدثت فى فترة أسبق من ذلك . ومن المهم أن نتوسع فى الكلام عن حادثة النبوءة هذه ، إذ يبدو - إذا كان تصوير أفلاطون موثوقا به - أنها قد أحدثت أزمة روحية لسقراط . فننطلق من أن تصوره - من الملاحظات التى قدمها لنا أفلاطون من الفترة الأولى من حياته - رجلا بارزا فى الدوائر الفكرية العليا ، متمكنا من آخر ما وصل إليه العلم فى عصره ، وإن كان شديد السخط على حالة المعرفة العقلية ، وصاحب نظرات خاصة مبتكرة بكل تأكيد بشأن الأسس الأولى التى يستند إليها التفكير ومناهج البحث الفلسفى . . ولكنه على الرغم من الاحترام الذى يتمتع به لدى جميع المفكرين فى عصره ، ورغم أن له مجموعة من الخلفاء المعجبين ، الذين

يرون فيه أبرز أصحاب الفطنة ، جميعا ، رغم ذلك كله فليس له — بعد —
شيء من صفات الرجل الذى يحمل رسالة للناس كافة ، ليقتنمهم بمهلهم
بكل ما كان على الإنسان أن يعلمه ، وبالأهمية البالغة ، لعناية الناس بأمر
أرواحهم . فهذا — كما يقول أفلاطون — هو الشيء الذى يبدو بوضوح
أنه يميز سقراط فى الفترة الأخيرة من حياته ، عن سقراط الذى تسخر
منه مسرحية أرسطوفان فى صورة المتعالم المتفهب سخرية يفهمها الناس .
وقد كانت « الرسالة » بحسب رواية أفلاطون فى محادثة « الدفاع »
نتيجة مباشرة لنبوء عرافة أبولو . ويبين سقراط أن رأى الإله فيه قد
أذهله فى مبدأ الأمر ، إذ كان على يقينة من أنه لم يكن صاحب حكمة خاصة .
ومن ثم أخذ يعمل لإثبات كذب أبولو ، بالبحث عن رجل يكون أحكم
منه . وقد بحث عن مثل هذا الرجل بادى ذى بدء بين البارزين من
رجال مدينته ، أى رجال السياسة ، ثم بين الشعراء ، وأخيرا بين التجار
وأصحاب الحرف . ولكنه لم يصل من كل ذلك إلى شيء . فبين الطائفتين
الأوليين لم يجد شيئا من المعرفة الحقة على الإطلاق ، فلا الساسة ولا الشعراء
استطاعوا الإدلاء بشيء مفهوم عن المبادئ التى تقوم عليها سياستهم
أو فنهم أما أصحاب الحرف فقد كانت لهم فزبة على أقرانهم ، إذ كانوا
يدركون أعمالهم حقا ، ولكنهم مع الأسف يتجاوزون حدودهم فيعتقدون
أنهم يفهمون المسائل الأخرى الهامة بنفس المستوى الذى يفهمون به
حرفهم الخاصة . وفى الوقت المناسب أشرقت على سقراط أضواء المعنى
الحقيق لنبوء العرافة .

لقد كان معناها أن البشر جميعا جاهلون كل الجمل بالامر الاوحد الذى ينبئ عليهم أن يعرفوه . وهو أن يسلكوا السبيل إلى تقويم حياتهم والعناية بأرواحهم وإصلاحها بقدر المستطاع ، وأنهم جميعا عمن هذه الجهالة . وسقراط هو الاستثناء الوحيد . فاذا كان هو أيضا لا يملك هذه المعرفة الهامة إلى أقصى حدود الأهمية ، فإنه يعرف أهميتها ويعرف جملة بها . إنه — على الأقل — هو الأعور فى ملكة العميان ، وأحكم الناس بالنسبة لواقع الناس . وهذا هو ما يجعله يحس أنه واجب ألقاه الإله على عاتقه أن ينشد المعرفة الكبرى مثابرا على طلبها ، وأن يحاول إقناع كل إنسان — مواطن كان أو أجنبيا — ممن يقبلون الاستماع إليه ، بأن ينشدها معه . وهذه — كما تقول محاوراة الدفاع — هى الطريقة التى تحول بها سقراط الفطن ، إلى « مؤسس فلسفة الاخلاق » .

ولاجدال فى أن هذا فى ظاهره ينطوى على نوع من الدعاية فى الطريقة التى أنفخت بها قصة النبوة فى هذه الرواية ، ولكننا لن تكون ذات معنى على الإطلاق إلا إذا كان قد قصد بها تسجيل حقيقة تاريخية فيما تسند إليه من افترض رئيسي ، هو أن سقراط فى منتصف حياته قد مر بأزمة خرج منها وهو على بينة من أن له رسالة ، وأن جواب العرافة كان له أثر فى إثارة هذه الأزمة . وربما كان مما له دلالة أن أفلاطون يصوره وهو يحاول أن يحول إلى عقيدته ، شابا توسم فيه الخير هو خير ميسر عم أفلاطون ، بعدد حمة بوتيدا مباشرة ، تلك الحملة التى وقعت له فيها الغيبوبة التى استمرت أربعين وعشرين ساعة ، والتى جاء وصفها فى محاوراة « المأدبة » ، ولو عرفنا مزيدا

من الحقائق ، فر بما نجد أن الدعوة الموجهة إليه أن يكون نبيا قد جاءته خلال هذه النيبوبة ، ويكون بيرت موفقا وملمها في قوله إن هذا يفسر لنا لماذا نجد في كتابات أفلاطون أنه كثير ما يلجأ إلى لغة الواجب العسكري . يصف بها إحسانه بالمهمة التي ألقاها الإله على عاتقه . ويدور واضحاً على الأقل أن رواية أفلاطون ترجع إيمانه بأنه رجل قد تميز بواجب معين تجاه البشرية إلى تاريخ يقرب من بداية الحرب البيلوبونيسية ، وليس قبل ذلك . فإذا تصورناه على الصورة التي لابد أنه كان عليها قبل أن يتقدم بشير يقون بسؤاله الخطير إلى أبولو ، فإن الصورة التي يرسمها لأفلاطون في الصفحات الأولى من محاوره « پارمينيدس » وروايته عن أيام حياته الأولى في « فيدون » والمصدر المجهول الذي استمد منه زينون ما يرويه لنا عن العلاقة بين سقراط وأتيفون ، والمسرحية الساخرة « السحاب » كل ذلك نجد أنه يتسق بعضه مع بعض بصورة محكمة (١) .

(١) هذه بالذات هي القطعة التي لا أستطيع فيها أن أتمشي مع البيان القيم الذي يقدمه ك . رير في كتابه عن « سقراط » فهو يعترف اعترافاً كاملاً بأنه ينبغي علينا أن نتقبل قول أفلاطون عن سقراط أنه كان متفهماً في كل علوم عصره ولكنه يوشى إلى أنه اكتسب هذه المعرفة عن قصد في مستهل حياته ، كجزء مقصود من التهيؤ « الرسالة » ويخيل إلى أن هذا لا يتسق مع تصوير أفلاطون الذي يستفاد منه أن إدراك سقراط للرسالة لم يحدث إلا في منتصف حياته . وعلى أية حال فلا يجوز أن نخطئ فنظن أن « العلامة الإلهية » أو « العلامة المخارقة الطبيعية » لها أية صلة بالموضوع . فأفلاطون لا يشير إلى هذه « العلامة » أصلاً في ذلك الجزء من محاوره « الدفاع » التي يصف فيه منشأ الرسالة . وحين يتحدث عن « العلامة » يحدث عنها على أنها شيء يرجع إلى طفولة سقراط .

ونستطيع أن نجتمع من أفلاطون وغيره بعض المعلومات عن الأشخاص الذين لابد أنهم كانوا يؤلفون «حكمة» سقراط في تلك الأيام قبل الحرب الكبرى . فسنجد بادىء ذي بدء بين أقرب خلصائه ذلك الصديق الثرى المخلص أفريطون ، ابن بلدته ، وهو رجل يقاربه في العمر . ثم هناك ذلك المعجب المستهام شيريفون الذى يستخر منه الشعراء الهزليون من أجل جلده الشاحب وسحته الداكنة ، ومظهره الذى تبدو عليه المسغبة والجوع .

وأرستوفان يصوره على أنه شريك سقراط الذى يلعب دور «الأرواح» فى «روحانيات سقراط» ^(١) وبض الذين اعتبروا فيما بعد «سقراطيين» ، من يكبرون هؤلاء سفا ، يمكن اعتبارهم أصدقاء لسقراط ابتداء من هذه الفترة العامة ، ومن المحتمل جدا أن يكون بين هؤلاء أرستينوس القورينائى وأنستانس ذلك المتصوف الشديد اللجاج الحاد اللسان ، وربما كذلك إفليدس وقربسيون Terpsion والإيليون (من ميجارا) كما ذكرنا من قبل . ولم يكن أفلاطون وزينون وأسكينس قد ولدوا بعد بطبيعة الحال . وينبغى أن ندرج من بين البارزين الذين لابد أنهم كانوا على صلة شخصية وثيقة بالفيلسوف منذ نشوب الحرب

(١) أرستوفان . الطيور ١٥٥٣ وما بعدها ، حيث يستخر من سحنة شيريفون الداكنة بأن يطلق عليه كنية «الحقاس» وفى السحاب ٥٠٣ يجعل سقراط يعد سترسيادس Strepsiadès الجوز أن جزاءه على مثارته على الدرس فى «مدرسته» هو أن يصبح مثل شيريفون تماما مما يجعله يرد فى ذعر : «يا للهول لاذن سأصبح جثة جثة» .

الكبرى - ينبغي أن ندرج أولاً في الطليعة منهم المصنف وأذكاهم جميعاً
الكبيادس عبقرى الديمقراطية الأثينية الشرير ، الذى دلت عليه الديمقراطية
حيناً وانقلبت عليه حيناً آخر . ثم رجلين من أقرباء أفلاطون هما عمه
خرميدس Charmides وأقربى ابن عمه اللذان جلبا على نفسيهما
من العار أكثر مما جلب الكبيادس على نفسه ^(١) ونستطيع أن نضيف
لل قائمة — متخذين شاهداً من كتاب الجمهورية أخو أفلاطون
الكبيرين ، أديماتوس Adimantus وجلوكون Glaucon ، وأسر
سيفالوس Cephalus السيراكوسى الثرى صاحب المصانع ، وهو من
صنائع بركليز ، ووالد ليزياس Lysias مؤلف الخطب المشهور . ويخطو
أفلاطون خطوة أبعد ، فيصور أن الفيلسوف على علاقة ودية مع بعض
الأفراد من ذوى الاتصال المباشر ببركليز ، وخاصة زوجته غير الشرعية
أسبازيا Aspasia الشهيرة ^(٢) ، وكالياس الشديد الثراء ابن هيبونيكوس .

(١) يصف كل من أفلاطون في محاوره «المأدبة» وأسكنس في بقايا كتابه المسمى
الكبيادس ، يصفان الملاقة بين الكبيادس وسقراط على أنها ترجع إلى العهد الذى كان فيه
الكبيادس ما يزال صبياً ، ولابد أنه كان قد بلغ العشرين من عمره حين قاتل في صفوف الفرسان
في بوتيديا . ونصف محاوره خرميدس توثيق الصلة بين سقراط وخرميدس — الذى كان
يؤمنه قى صنيراً بعد معركة بوتيديا مباشرة — على يد أقربى ابن عمه ، الذى يفهم من السياق أن
علاقته بسقراط كانت قائمة من قبل .

(٢) يتوقف سقراط بعلاقة المودة بينه وبين أسبازيا في محاوره أفلاطون المسماة مكسيموس
Menexenus وكتب أسكنس حواراً عن موضوع هذه الصداقة . وفي محاوره أفلاطون
نجد كالياس هو المضيف الذى يرحب ببروتيجوراس ، وهو كذلك شخصية بارزة في محاوره
زيتون المسماة «المأدبة» التى جعل منزهة في بيرايوس Piraeus سنة ٢٠١/٢١٠ وقد عمر
طويلاً جداً ، وكانت أبرز أعماله العامة بعد وفاة سقراط .

Hipponicus أثري أثرياء أثينا في ذلك العصر . وإذ كان أسكينس في إحدى محاوراته السقراطية الضائعة المسماة ميليتيادس Militiades ، وقد ذكر ميليتيادس بن سزاجوارس Stesagoras وهو أحد أفراد أسرة فيليداي Philaidae العظيمة ، فيبدو أن سقراط قد عرف طريقه إلى حلقة كيمون Cimon أيضاً كما عرف طريقه إلى حلقة بركليز . ونعرف أكثر من ذلك من محاوره ، لاخس ، الأفلاطونية أنه كانت له صداقة قديمة مع أسرتي توسيديدس Thucydides بن ميليزياس Melesias ، وأرستيدس العظيم ، كما أنه كان معروفاً جيداً عند نيخياس الأثري الموقر التقيس الحظ ، قائد ذلك الفريق من الديمقراطيين الأثينيين الذين كانوا أكثر اعتدالاً وأكثر تحملاً للتبعة ، في السنوات التي تلت وفاة بركليز ، والذين كانوا يعارضون الحزب الأكثر ميلاً إلى الروح العسكرية ، الذي جعل من كليون Cleon والسكبيادس على التوالي وثنين معبودين ، ويظهر أفلاطون مراراً إلى صداقة قديمة العهد مع رجل آخر من البارزين أبعد من أولئك عهداً ، هو دامون Damon الموسيقار المبرز الذي كان يعتقد أنه — كأنكساغورس — قد ربي ، بركليز واستحبه على اتخاذ بعض الخطوات الديمقراطية التي اتخذها .

ويروى كتاب عصر الإسكندرية كذلك نوادر عن صداقة شخصية بين سقراط وشاعر المأسى يوريديز Euripides الذي ربما كان يكبره بحوالي اثني عشر عاماً ، ويستشهدون — لتأييد رأيهم — بفقرات من المسرحيات الهزلية المعاصرة لذلك الوقت ، التي تصور يوريديز يستمد

وجيه في رواياته من سقراط ^(١) . وما دمت لا نملك أية معلومات أسبق ولا أدق ، فلانستطيع بطبيعة الحال أن نحكم ما إذا كان هناك أى أساس لهذه الدعايات أكثر من روح الاستقصاء والتفكير في الآراء التقليدية ، وهي روح مشتركة بين كل من كاتب المأساة والفيلسوف . ويظهر كاتب مأس آخر حديث السن يسمى أجاثون Agathon في كتابات أفلاطون كصديق ومعجب بسقراط ، فتصف محاورة ، المأدبة ، حفلاً أقيم في منزله للاحتفال بفوزه بين كتاب المأسى لعام ٤١٥ ق . م . ويظهر أرستوفان فيها على أنه واحد من المدعوين في الحفل . ويزعم أفلاطون أنه على الرغم من المسرحية الساخرة التي كتبها أرستوفان عن سقراط قبل ذلك بشأن سنوات ، فإنهما على أحسن حال من الصداقة والمودة . وإذا كان أفلاطون — كما نرى من محاورة الدفاع — ^(٢) يعتقد أن بقايا من مسرحية السحاب

(١) في موضوع أحداث العصر السكندري عن العلاقة بين سقراط وبوريديز انظر D. L. ii 18,33 والذي يدل على أننا لانستطيع أن نثق في هذا النوع من المزاعم التي تبدو من الظاهر صحيحة ، أنه قد ورد في إحدى هذه الملاحظات (ديوجينيس ليرتيوس ٤٤٤٢) نص عن بوريديز فحواه أنه لا الأثينيين على مقتل سقراط في كتابه بالاميدس . وإذا كان أرستوفان قد « مسخ » محاورة بالاميدس في كتابه . ثسموفريازوسا Thesmophoria zussa (التي أله سنة ٤١١ ق . م) فإن الإشارة المزعومة إلى مقتل سقراط تكون قد كتبت قبل الحادث سنوات . والمفهوم أن مصدر القصة كلها ببساطة هو أن سقراط يثير في محاورة الدفاع الأفلاطونية (٤١ ب) إلى قصة الحكم الظالم الذي صدر بإعدام بالاميدس كمثل لحائنه هو .

(٢) الدفاع ١٩ ج — يحاول ل . روبين L. Robin في مقدمته البارة للطبعة التي أخرجها من محاورة « المأدبة » في مجموعة Collection des Universies de France يحاول محاولة بارعة أن يبين أن غرض أفلاطون الواضح من طريقة تصويره لموقف =

خالقة بالأذهان قد أدت إلى الحكم على سقراط ، بما أوجدت من تحامل عليه في أذهان القضاة ، فلا أستطيع أن أعتقد أن أفلاطون كان يمكن أن يتخيل من عنده وجود مثل هذه العلاقة بعد مقتل أستاذه . ومن الأفضل أن نتقبل تصويره على أنه حقيقة تاريخية ، وننتهي إلى النتيجة الواضحة ، وهي أن مسرحية السحاب الساخرة كانت معروفة لدى جميع الجماهير يومئذ على أن المقصود بها هو الدعاية ليس إلا .^(١)

ومن معرفتنا بحجم مدينته أثينا في عصر بركليس ، وأحوال سكانها ، فستطيع بطبيعة الحال أن نكون على يقين من أن أي رجل نال من الشهرة في مثل ذلك المجتمع ما ناله سقراط ، يستطيع أن يقال كل من كان مثله من البارزين . فلانستطيع مثلاً أن نشك في أن سقراط قد عرف أشخاصاً مثل سوفوكليس Sophocles ، وهيرودوت Herodotus ، وفيدياس Phidias ولكن لا نجد شيئاً أن نضرب في تأملات عن علاقاته بمثل أولئك العظماء من معاصريه ونحن لا نملك أية معلومات محددة على الإطلاق .

== أرسطوفان في المحاورة هو أث يثنى غله من الرجل الذي اعتبره بحق مشولاً عن مقتله سقراط بالشهر به ووصفه بأنه عريد شرير (حاح) . ويخيل إلى مع أحقاي الشديد لروين . أن هذا سوء فهم لجملة بسيطة واحدة هي تلك الجملة التي وصف فيها فن أرسطوفان بأنه كله متعلق بديونيسيوس وأفروديت (المأدبة ١٧٧ هـ) فديونيسيوس يذكر هنا على أنه حامى الفن المسرحي وأفروديت — فيما أرى — تذكر إشارة إلى ارتباطها بالجمال ، وهو أطراء « المسرح » الذي هو أصدق سمعة في شعر أرسطوفان .

(١) لقد جعل أفلاطون سقراط يقول هذا القول في محاورة الدفاع ذاتها (١٨ د) حيث يميز تمييزاً واضحاً بين الشعر والشعراء الهزليين أنفسهم ، وغيرهم ممن يردد عباراتهم الساخرة « غيظاً مني وتشوهاً لحقيقتي » .

الفصل الثالث

المرحلة الأخيرة من حياة سقراط

محاكمته وموته

إذا كانت المحاولة التي بذلناها لكي نكون صورة جديدة عن حياة سقراط في فترة نعلم عنها أقل مما نعلمه عن أية فترة أخرى ، أقول إذا كانت تلك المحاولة ناجحة فعلياً أن نتخيله حتى بلوغه الأربعين من عمره وإحداً من أبرز «القول المفكرة» في عصر عظيم يتسم بحركة مواءمة من الناحية الفكرية والخلقية ، يمتاز — في الدوائر التي تتم اهتماماً خاصاً بالأمور العقلية — باهتمام شديد بالنظام الخلق الذي يخفى على الناس ، وعقيدة دينية ليست شائعة في المجتمع المحيط به : عقيدة في الله وخلود الروح . كما يمتاز بنظرة أصيلة إلى أبعاد حد ، في طبيعة المشاكل الفلسفية والوسائل التي ينبغي أن تستأول بها ، وكان من الطبيعي أن يبدو في نظر الجماهير رجلاً شاذاً مسلياً ، يمزج بين حذقة المتعالم ، تعجبه المفارقات ، وحرية الفكر ، والعرافة ، وهو الطابع الذي وسّمته به مسرحية السحاب لأرسطوفان . وعلينا الآن أن نصف كيف أدى نشاطه الجديد في التبهير برسائله للناس جميعاً مع اختلاف ظروفهم وأوضاعهم ، وهو النشاط الذي كان يمارسه في خلال «حرب طالية» ، ظل ضغطها يشتد على أثينا

تدريجياً حتى وصلت بها إلى صراع لا هدف له إلا مجرد البقاء . . كيف أدى هذا الضغط إلى توتر متزايد بين هذا ، النبي ، وجمهرة المواطنين العاديين الذين لا يعضرون له السوء ، ثم أدى في النهاية إلى إدانته بتهمة انصرف في الواقع إلى خيانة الواجب الوطني أو عدم الولاء لروح الحياة الأثينية . ولا ينبغي بطبيعة الحال أن ننسى أنه على الرغم من أن المعركة الطويلة بدأت في صورة حرب من أجل الاحتفاظ بإمبراطورية قوية ، وعلى الرغم من أن أيننا — عند توقيع صلح نيقية ، (٤٢١ ق . م) الذي أخرج اندلاع الحرب سنتين أو ثلاث سنوات — كانت ما تزال رغم كل شيء هي الظاهرة على كل المدن الهيلينية . . فإن السنوات الأخيرة من المعركة ، وخاصة بعد الفعل الذريع الذي منيت به المغامرة الأثينية الكبرى ضد سيراكوسة (في عام ٤١٣ ق . م) ، قد شهدت المدينة الإمبراطورية تقاقل ، قتال المستميت ، وانتهت بالانهيار الكامل للنظام الخلقى والسياسي والاقتصادي للقديم . وقد كان الديمقراطيون القصار النظر برغم حسن طوبتهم يعيشون في أحوال تختلف تمام الاختلاف عن أحوال الدولة الديمقراطية الآمنة القوية — المنساعة بسبب ذلك — التي تصفها خطبة الجنائز ، لهر كاي ز كما روى عنه توسيديد Thucydide وقليل ما سجل عن الأحداث الخارجية في حياة سقراط خلال السنوات العشر الأولى من هذه المعركة ، السنوات التي استغرقتها الحرب فيما عدا وقائع قليلة تتعلق بحسن بلاته في القتال . ولكن لا بد أن تكون هذه الفترة التي شهدت زواجه من الزوجة الوحيدة التي عرف عنه أنه

عنى بها ، وهى كسانثيا Xanthippe ، حيث إننا لم من أفلاطون أنه عند وفاته ترك ولداً واحداً كان عندئذ فى ، أى لا يزيد عمره عن لثلاثة عشرة أو الثامنة عشرة ، وصبيين صغيرين يبدو أن أصغرهما طفلاً فى حضن أمه ^(١) . ويوحى اسم كسانثيا وكذلك اسم ابنا الأكبر والأصغر ، بكرم المحمد . وقد صور كتّاب التراجم السكندريون كسانثيا فى صورة المرأة النمرة ، ذات مزاج حاد لا يحكم ولسان سليط . ولكن لا توجد إشارة واحدة من هذا النوع فى كلام أفلاطون . وفى محاوره أفلاطون - وهى المكان الوحيد الذى يذكرها فيه أفلاطون - تبدو ببساطة فى صورة الزوجة المحبة ، يلتقى بها سقراط لقاء طويلاً لآخر مرة فى حياته قبيل مقتله مباشرة . ولا يذكر عنها زينون عنها شيئاً أكثر من أن ابنا الأكبر كان يرى فيها - كما هى عادة الأبناء - أما صالحة صبوراً محتملة ^(٢) وأنه كان من الظاهر أن أنتستينيس لا يحبها . فالفهم - إذن - أن سقراط لم يعتقد هذا الزواج إلا فى منتصف حياته . وللسكندريين قصة تقول إنه كان له زوجة أخرى تدعى مورتو Myrto ، قيل إنها ذات قرنى بأرستيدس العظيم . ولكن قصصهم عن مورتو متناقضة . فهم يجعلونها أحياناً ابنة أرستيدس ، وأحياناً حفيده ، ومرة هى زوجة سقراط الأولى : ومرة

(١) اسم الولد الأكبر كما أثبتته زينون هو « لامبروكليس Lamprocles » أما

الصغيران فاسماهما صوفرونيكوس Sophronicus ومنكسينوس Menexenus .

(٢) الذكريات ٢ ، ٢ ، حيث يلوم سقراط ابنه على نكران جيل والده .

(٣) الأدبية ٢ - ١٠ ، وبما كانت هذه السكندرية هى السبب فيما تنشر من القول

ضدها فيما بعد .

هى زوجته الثانية ، بل إنهم يقولون أحياناً إنه كان متزوجاً بالاثنتين فى وقت واحد - والظاهر أن هذه من مخترعات أرسطوكسينوس Aristoxenus المولع بالتفصيع - ويزيدون فيقصون قصة سخيفة مؤداها أنه تزوج بـ زوجة ثانية استجابة لنشريع أثينى خيالى ، يعمل على تعويض ما نقص من السكان فى الحرب بإباحة الزواج من اثنتين ^(١) (من الممكن تاريخياً أن يكون سقراط قد تزوج مرتين واسكن صمت أفلاطون وزينون فى هذا الشأن يحمل الأمر غير محتمل الحدوث) .

وفترة الخدمة العسكرية التى قضها سقراط بقدر ما تدلنا معلوماتنا ، ترجع - بصرف النظر عما يحتمل من اشتراكه قبل ذلك فى حصار ساموس بقيادة بركليس - إلى الحرب الأرشيدامية . وروى أفلاطون أنه برز فى القتال بشجاعته الفائقة فى حصار بوتيديا (٤٣١ - ٤٣٠ ق . م) ومرة أخرى فى المعركة الخاسرة فى ميدان ديليوم Delium حيث فُتيت القوة الأثينية كلها على يد البويطيين Boeotians ، وثمة معركة ثالثة أمام أمفيبوليس Amphipolis يذكرها أفلاطون ^(٢) ويظن عادة أنها تشير إلى القتال الذى وقع خارج المدينة سنة ٤٢٢ ق . م وقتل فيه كلا من القائد الأثينى والإسبرطى : كليون Cleon وبراسيداس Brasidas ، وإن كان الأستاذ بيرنت يرى أن الإشارة ربما كان مقصوداً بها القتال الذى صاحب تأسيس أمفيبوليس قبل ذلك بخمسة عشر عاماً . وواضح من أقوال أفلاطون أن

(١) فى هذا النحو السكندر دى افطر ديوجينيس لايرتيوس ٢ : ٢٦٤ أثنايوس ٨ ، ٥٥٠ د .

(٢) الدفاع ٢٨ ، ٥ .

سقراط كان راجح الكفة بشكل ظاهر في الشجاعة الحربية وحضور
البديهة . وهو يضع على لسانه في محاوره الدفاع^(١) إشارة إلى سلوكه المثالي
بوصفه جنديا ، يفخر فيها بنفسه ويحق له أن يفخر . وفي غير هذه المحاوره
وضع أفلاطون تقريرا لسلوكه سواء أمام بوتيديا أم في ديليوم . على لسان
شاهد عيان له كفايته العظيمة في المأدبة^(٢) بعد أن أثنى السكيا دس على
تحمل سقراط لكل شدائد المعركة القاسية ، وأورد قصة الغيوبة ، العجيبة ،
يسجل أنه حين هرح هو في أثناء القتال حماه سقراط ، ويقول إن نوط
الشجاعة الذي منح له هو كان أخرى به أن يمنع للرجل الأكبر سنا .
ويضيف أنه شهد حضور بديهة سقراط عند الانسحاب عقب الهزيمة
من ديليوم ، وأنه قد فاق في سيطرته على نفسه القائد لآخس Laches
رفيقه في الانسحاب . وفي محاوره لآخس^(٣) يجعل لآخس نفسه يروي
القصة معقباً عليها بأنه لو كانت بقية القوة الأثينية قد سلكت سلوك
سقراط لتحولت الهزيمة إلى نصر^(٤) . ومن الواضح أن أفلاطون يريدنا
أن نفهم أن سقراط الجندي كان موضع تقدير رفيع من رجال الحرب
المحترفين . وهذا يساعد بلا شك على تفسير الإعجاب الذي كان يحسه
الشباب نحوه فيما بعد ، من الذين كانوا يطمحون إلى احترام القتال مثل

(١) المرجع نفسه ، وفي الموضع نفسه .

(٢) ٢١٩ هـ وما بعدها

(٣) ١٨١ ب

(٤) في « ديوجينيس ليرتيوس ٢ ، ٢٦ » يرد القول بأن سقراط قد أخذ حياة
زينون في ديليوم . ولكن لا كان زينون طفلا في ذلك الوقت بكل تأكيد ، فلا بد
أن تكون هذه الرواية غير دقيقة لقصة إغاثا السكيا دس في بوتيديا .

زينون ، ، وشبيع زينون المخيف ، مينون Meno التيسالى الذى أطلق أفلاطون اسمه على إحدى محاوراته .

وليس لدينا سجل لآية أعمال خاصة لسقراط فيما بين الانسحاب إلى ديليوم حتى السنوات الأخيرة من المعركة المتجددة ، حين كانت أثينا تقوم بمحاولتها الأخيرة لنفادى الهزيمة الكاملة . ولكن علينا أن نتذكر أن هذه السنوات بالذات — مابين ميثاق السلام الذى أبرم فى نيقية، وتجدد القتال الشامل مع احتلال الإسبرطين لديسليا Decelea وهى موقع فى الأراضى الأثينية سنة ٤١٣ ق . م — هى السنوات التى لابد أنها كانت أخطر فترة بالنسبة إليه . فى هذه السنوات كان السكيادس قد أصبح الفتى المدلل عند ذوى الزعة الاستعمارية من العسكريين الأثينيين ، وأوحى إليهم بذلك الحلم القاتل : حلم غزو سرقسه الذى أدى مباشرة إلى تحطيم أثينا ذاتها . وقد حدد تاريخ الاجتماع الذى عقد فى منزل أجاثون ، والذى يصفه أفلاطون فى المأدبة ، فى الجزء الأول من عام ٤١٥ ، فى الشهور السابقة مباشرة لإبحار الأسطول الأثينى الضخم وعلى رأسه السكيادس قائد أريسيما . ووصف أفلاطون للقائد الذى أطارت لبه القمحة والخمر ، قد قصد به كذلك دون شك أن يذكرنا بالحالة التى كان الأثيذون غارقين فيها يومئذ من الثقة بالنفس التى تبلغ حد الاستخفاف^(١) . وفى خلال شهور قليلة تغير

(١) لا نستطيع بطبيعة الحال أن نتأكد من كون هذه « الوليمة » حقيقة تاريخية ، وإن كنت أظن ذلك محتملا . وعلى أية حال قد حرص أفلاطون على أن يوفق بين طابع وصفه وبين الحالة النفسية التى كانت قائمة وتشد .

الوضع بأكله . فأكادت الأرمادا الضخمة تنشر قلاعها حتى كانت أثينا ترجح
«بفضيحة دينية، ضخمة . فقد اتهم السكيادس وكثير من رفاقه بأنهم قد
اشتركوا مراراً في مسرحيات ساخرة تهرأ ببعض المقدسات» (الليوزينية،
التي هي جزء لا يتجزأ من الديانة الرسمية للدولة . واستدعى السكيادس على
عجل ليحضر محاكمته، وفر وهو في طريقه إلى الوطن ، وحكم عليه بالإعدام
في غيبته ، هو وحمه Axiochus ، الذي كان هو أيضاً عضواً في حلقة سقراط
وعدد كبير آخر من البارزين يشمل كما هو ظاهر كثيراً من الذين أورد
أفلاطون أسماءهم في روايته عن ولية أجاثون الحمراء (١) .

وقد اتخذ السكيادس طريقه إلى إسبرطة وأصبح لتوه أكبر عدو
لديمقراطية التي كانت تعبدته من قبل . وقد كانت نصيحته هي التي تسببت —
حين جدد الإسبرطيون القتال — في أن يتخذوا خطوة غيرت طابع الحرب
كلها ، وهي إقامة موقع محصن دائم على الحدود الأثينية . ولقد أصبح
السكيادس الآن خائناً علانيةً ، كما كان محكوماً عليه بالإعدام ، وحالة به
لجنة الدين من أجل تدنيس المقدسات ، ولا بد أن يصبح سقراط في أذهان
كثير من المواطنين الذين يقام لرأيهم وزن ، ملوث السمعة بمسئوليته عن

(١) أكل عرض للفضيحة كلها — وهي بطبيعة الحال رواية مفترضة من جانب واحد —
هي التي يرويها الخطيب أندوسيدس Andocides وقد كانت أحد الذين وجه إليهم الاتهام
ثم انقلب نهائياً في خطبته عن « الأسرار الدينية » وليس من المقبول أن تكون مجرد
مصادفة أن ثلاثة من المتهمين يحملون نفس الأسماء التي نجدتها في محاوره الأدبية ، وهم فيدروس
Phaedrus وأريزيماكوس Eryximachus (وكلاهما يشترك في الحوار) وأكبو مينوس
Acumenus والد الأخير .

الأعمال الشائنة التي ارتكبها رجل مفروض فيه أنه تليذه، وصحيح أنه بعد فشل الانقلاب الموجه ضد الديمقراطية سنة ١٩١١ — الذي أطلق عليه اسم «حكم أوليجاركية الأربعمائة» أخذ السكيادس يعمل لصالح مواطنيه بدلا من العمل ضدهم، وأنه استدعى بالفعل للرجوع إلى أثينا — فترة من الوقت في ثياب النصر (٤٠٧ ق م) ولكن الشعور الشعبي الموالي له سرعان ما تحول حده، وعاد مرة أخرى إلى الثفي وإلى سوء السمعة، حين برز سقراط للمرة الأولى في حياته — عاملا على مسرح الحوادث العامة.

كان ذلك في خريف سنة ٤٠٦ ق.م. وكان الأثينيون قد أحرزوا إلبان الصيف نصراً بحرياً باهراً على مقربة من أرخبيل «أرجينوزا» بين ثيزيوس والأراضي الآسيوية، أنقذهم في اللحظة الأخيرة من هزيمة فاصلة، وإن كلفهم النصر خسارة خمس وعشرين سفينة وحياة أربعة آلاف رجل، روى أنه كان من الممكن إنقاذهم لولا إهمال القواد الشائن، حتى تقرر محاکمتهم عن ضياع هذه الأرواح وفقا لإجراءات الأيسانجليا Eisangelia الأثينية^(١).

وطلب المدعى أكثر من ذلك أن يقرر مصير القواد الثمانية جميعا، بعملية تصويت واحدة. ولما كان هذا خرقا صريحا للإجراءات الدستورية المتبعة، فإن هيئة الرئاسة (prytanes) الذين تتكون منهم هيئة

(١) ويعني ذلك أن القضية لا تنتظرها هيئة من المخلصين المؤيدين اليمين وإنما تطرح للتصويت العام

على «تؤتمر المواطنين وهي بذلك أشبه بقانون » Bill of attainder .

المكتب التي تعد جدول الأعمال لمجلس الشيوخ ذي الخمسة عشر عضواً ،
وترأس الجلسة ، قد اتخذت موقفاً مشرفاً حين احتجت على هذا الإجراء
احتجاجاً شديداً وقررت أنها لن تطرح للتصويت العام مثل هذا
الانقراح غير القانوني . وبالرغم من أن « هانتف » سقراط أوحى إليه
ألا يعرض رسالته للخطر بالتدخل في السياسة فإن ذلك لم يمنعه من خدمة
المدينة إبان محنتها العديدة ، بترشيح نفسه لمجلس الشيوخ . وغداً — حينئذ كما
شاء له حظه — عضواً في لجنة الرئاسة (Prytanes) . وبعد مناقشة طويلة
حامية انهارت مقاومة أعضاء الرئاسة الآخرين أمام تهديد المدعين بأن
يضمنوا أسماءهم أيضاً في قائمة الاتهام . وبقي سقراط ثابتاً لا يتزعزع
وإن لم يكن لاعتراضه وحده كبير جدوى . وحوكم القواد وحكم عليهم
بالإعدام جميعاً ، ونفذ الحكم فوراً في ستة منهم كانوا في متناول أيديهم
وخول سقراط أن يروي القصة — كما حدث منه عند محاكمته — برهانه
على تماسكه الواضع وإيمانه دون خوف بالعدالة (١) .

(١) يصف أفلاطون هذا الموضوع في محاوره « الباطع » ٣٢ ب — ج ويروي
زينون تفاصيل المحاكمة كاملة في كتابه هيلينكا ١ ، ٨ Hellenica ويحتمل أن يكون
أفلاطون — وربما زينون أيضاً — شاهداً عياناً لإجراءات المحاكمة . ولا يوجد في
روايتهما ما يدل صراحة على ما إذا كان أعضاء هيئة الرئاسة قد سحبوا اعتراضهم في مجلس
الشيوخ أو في الاجتماع العام للمدينة ، وبالرجوع إلى ما يقوله زينون في مذكراته
(Memorabilia) تراه يذكر أن سقراط كان رئيساً للجنة الرئاسة في حين أنه لا يذكر
شيئاً من هذا في كتابه هيلينكا وهو أكبر تفصيلاً كما لا يذكره أفلاطون أيضاً . وإن كانت
من المحتمل أن تكون ذاك رته قد خاتته كما خاتته حين ذكر أن عدد المدانين من القواد
الذين حكم عليهم بالإعدام كانوا تسعة ، في حين أنهم كانوا ثمانية . أعـ منهم ستة فلا . =

وفي تلك الشهور التعيسة من عام ١٩٠٤/٢ التي تلت استسلام الأثينيين إلى ليساندر Lysander سمحت لسقراط الفرصة لأن يثبت أنه لا يخشى حكم العصبة الأوليجاركية المتأمر أكثر مما يخشى حكم الرعاع .

وقد سلم الأثينيون عن حصافة منهم وحسن تقدير الأمور . ولم يكن لدى الإسبرطى اللفظ الذى جعلت منه مقادير الحرب — أو ربما خيانة القائد الأثينى — سيداً للرفق ، أية نزعة لاتصال الحكم الديمقراطى ، وتحت ضغط ليساندر تم تكوين لجنة من ثلاثين عضواً زودت بتعليمات لوضع تشريع لحكومة المدينة المقبلة ، ولكنهم اسوء الحظ بدلا من أن يقوموا بما نيط بهم ، أقاموا من أنفسهم بالقوة حكومة أوليجاركية ثورية حملت أكثرهم محافظة على الديمقراطية على ترك المدينة إلى ثغر بيروس فزاولوا حكما استبداديا واقترفوا من أحكام الإعدام وهصادرة الأملاك دون وازع ، ما اظنهم بالعار ، حتى طردوا منها قهراً وعادت الحياة الديمقراطية إلى مجاريها خلال عام ٤٠٣ .

وكان من محس الطالع لسقراط أن اثنين من أصفيائه كانوا ممن ارتكبوا هذا العار ، وهما أقريثياس ابن عم والده أفلاطون ، وكان يزعم الفريق الآخر عنفاً فى لجنة الثلاثين ، ثم خرم ميس شقيقها وكان

== أما الإشارة التى وردت فى « جورجياس » ومؤداهما أن سقراط كان رئيساً لئيل تلك اللجنة وارتكب خطأ فنياً بأن أعطى صوته عند أخذ رأى ، فمن المحتمل أنها تشير إلى حادث آخر سابق (جورجياس ١٠٤٧) ومن المؤكد أن الإنسان كان يستطيع أن يكون عضواً فى مجلس الشيوخ الأثينى أكثر من مرة . انظر تفاصيل هذه القضية العظمى فى كتاب جروته Grote المسمى « تاريخ الإغريق » ، ج ٤ ، ٦٤ .

من أعضائها الأساسيين كما كان هناك من المظاهر ما يوحى — كما في حالة «الكبيادس» — بأن سقراط «مرب للخزنة»^(١).

ولم يكن هو نفسه — على الرغم من تقديره الكامل للحكم الدستوري — يميل إلى ذلك اللون من الديمقراطية، الذي برز بعد وفاة بركليس، وعلى العكس من صديقه القديم شريفون، لم ير داعياً لترك أثينا حين هجرتها طلائع الديمقراطيين إلى بيروس، ولكنه هؤلاء السادة الذين زالوا سريعاً قد عرفوا جيداً أنه من المؤكد أن ينتقد سقراط لإجراءاتهم بنفس الحدة التي اعتاد أن يهر بها عما يحول بخاطره في المسائل العامة، فانتهزوا فرصة تعليقه اللاذع على أول أحكام الإعدام غير القانونية التي نفذوها^(٢) ليستدعوه إلى حضرته ويأمره بالامتناع عن التحدث إلى الشباب، بحجة أن ذلك يخالف أحد مراسيمهم التي تحرم تعليم فن القول. فرد عليهم سقراط بعبارات تدسم بذلك الطابع الساخر الذي يتميز به، مبيناً استحالة إطاعة هذا الأمر، فأمر بالانصراف بعد أن هدده

(١) من الإنصاف أن تذكر أن هؤلاء الرجال، ربما «فقدوا صوابهم» تحت تأثير المسكنة الجديدة التي وجدوا أنفسهم فيها. فان أثريثاس — وكان واحداً منهم عرف من قبل كشاعر واسع الثقافة تحدوه ميول ديمقراطية واضحة. وإذا كان لنا أنثق «زنبون» — ولو أنه كان أصغر سناً من أن يلم بهذه المعلومات بنفسه — فان سقراط كان أول من نجح خرميس على أن يغلب على خجله الطبيعي وبلغ ميدان السياسة. (الذكرات، ٣، ٧، ١).

(٢) قال إنه لم يعرف في حياته قط راعياً يفاخر بمهارته في انقاص عدد قطيعه (زنبون، ذكرات، ١، ٢، ٣٢).

أقرينياس^(١) . ثم كانت خطوة أخرى من خطوات التهديد والقمع أخطر من كل ما سبق ، حين حاولوا أن يشركوا سقراط نفسه في إحدى عمليات القتل هذه ، فقد تلقى أوامر عاجلة مع أربعة آخرين بالقبض على ليون السلاميى Leon of Salamis وهو أحد الأثرياء الذين انتبوا مصادرة أملاكه . ففقدوا الأمر وأعدم ليون على الفور ، إلا سقراط فإنه ذهب توأ إلى منزله متوقفاً أنه سيدفع حياته ثمناً لعصيانته ، لولا الثورة المضادة التى عصفت بالإرهاب^(٢) . وقد كان اتصال سقراط « بالخنونة » هو الذى دعا الزعماء الذين أعادوا الديمقراطية لأن يقدموه للمحاكمة سنة ٣٩٩/٤٠٠ ، وكان الموت قد سبق إلى كل من السكيادس وأقرينياس ، إلا أن الديمقراطيين لم يحسوا بالأمن ، والرجل الذى كانوا يتصورون أنه « صدر الوحى لحياةهما ما يزال صاحب نفوذ فى الحياة العامة . ويبدو أن الدوافع التى كانت تحرك أنيتوس بن أنثيميون Anytus of Anthemion — وهو المحرض على إجراء المحاكمة — لم تكن دوافع تافهة ، كما أنه لم يكن من ذوى التعصب السياسى أو الدينى . فى السياسة كان ديمقراطياً معتدلاً ، كما كان هو العامل الرئيسى فى إصدار العقو العام الذى شمل الفرق المتصارعة بعد سقوط « حكومة الثلاثين » . وقد برهن على ولائه له برفضه السعى إلى أى تعويض عن الخسائر الشخصية الجسيمة التى وقعت

(١) كان هذا كما يقول أفلاطون — لإجراء متبأ عند حكومة الثلاثين ، فقد كانوا حريصين على حياة أنفسهم من يوم يحاسبون فيه ، غرموا على إشراك أكبر عدد من الأشخاص فى جرائمهم .

(٢) أفلاطون . الدفاع ، ٣٢ — د

في فترة الاغصاب . ولم يكن ذا عصبية دينية ، إذ أنه في السنة ذاتها التي كان يعاون في إقامة الدعوى على سقراط بتهمة الإلحاد والزندقه ، كان كذلك يعاون في الدفاع عن الخطيب أندوسيدس Andocides الذي كان حينئذ مقدماً للمحاكمة بنفس التهمة . ولم تكن لديه أية شهوة لإرافة الدماء . بل كان الغرض من طلب إصدار الحكم على سقراط بالإعدام هو إقناع سقراط بأن يطلب لنفسه اللجوء بالانسحاب إلى المنفى ، فيصدر الحكم غيابياً نتيجة تخلفه عن الحضور^(١) . وقد برز هنا سؤال يقول . . لماذا تأخرت إقامة الدعوى على سقراط إلى السنة الرابعة بعد إعادة الحكم الديمقراطية ؟ وبيان ذلك أن الثورة ، والثورة المضادة التي تلتها سنة ٤٠٤/٣ ، قد أشاعت الاضطراب والفوضى في الأعمال العادية في دور القضاء . وكان لابد من مراجعة مجموعة القانون الآتني كلها وتدوينها ، ولم تنته اللجنة التي نيط بها هذا العمل من مهمتها حتى سنة ٤٠٧/٤٠٠ . وهذا هو السبب في أن الدعوى المقامة على سقراط لم يتمكن من النظر فيها حتى سنة ٤٠٠^(٢) ، والواقع أن أنيتوس قام بحركته بمجرد أن تهيأت له الإمكانيات .

ولم يكن لسياسي ديمقراطي بارز مثل أنيتوس بطبيعة الحال أن يظهر بصورة المدعى الفعلي في مثل هذه القضية ، فترك هذه المهمة لشخص

(١) هذا هو معنى كلمات أنيتوس التي استشهد بها أفلاطون في محاورة الدفاع ٢٩ ج والى قال فيها لأنه أمام أمرين إما ألا يواجه المحكمة على الإطلاق ، وإما أن يصدر حكم الإعدام حتماً (٢) انظر التفسير الكامل لهذه النقطة في شرح بيرن لأفلاطون في محاورة أوطيرون ٤ ج ٤-

مغمور ، أصغر منا من أنيتوس ، هو ميلتوس (وربما لم يكن هو الشاعر الذى يحمل هذا الاسم ، الذى ذكره أرسطوفان فى مسرحية (الضفادع) ، وإن كان من المحتمل أن يكون ابن ذلك لرجل) وكذلك كان المدعى ضد أندوسيدس فى تهمة « الإلحاد والزندقة » يدعى ميليتوس أيضا ، وكان أحد الذين قاموا بتنفيذ الاعتقال غير القانونى لليون Leon . وقد حفظت لنا المجموعة المنسوبة لليزياس Lysias ما يبدو أنه نص الحديث الذى أدلى به ميليتوس ضد أندوسيدس ، وهو كلام لا يصدر إلا عن رجل شديد التحصب للدين . فإذا كان هو — وهو الاحتمال القوى — نفس الرجل الذى أقام الدعوى ضد سقراط ، فهذا يفسر على الفور لماذا اختير « الإلحاد » بالذات ليكون هو الاتهام الرسمى . ففى هذا ما يكفل أن يصدر الشخص الذى تذرعه به للوصول إلى هدفه عن باعث يحفز به عمله ، وأن أسوأ ما فى سلوك أنيتوس أنه — لسكى يصل إلى هدف يعتقد أنه سيكون سليم العاقبة — قد تذرعه برجل كان ينبغى أن ينال احتقاره . أما دوره هو فى إجراءات المحاكمة فقد اقتصر على الإدلاء بخطاب رسمى يؤيد فيه الاتهام . وقام بمثل هذا الدور متكلم ثالث هو ، ليكون ، Lycon ، الذى لا يعرف عنه شيء سوى أن سقراط فى محاورته الدفاع الأفلاطونية يصفه بأنه « خطيب ، محترف » .

وإذ كانت التهمة التى استقر العزم على توجيهها إلى سقراط ، تعتبر من الوجهة القانونية اعتداء موجه ضد دين الدولة الرسمى ، فقد كانت القضية من نصيب أحد الرجال الرسميين ، وكان يطلق عليه فى أئتنا لقب

و الملك ، وهو ثانی تسعة من القضاة يعينون كل سنة ويطلق على مجموعهم لقب « archons » ، إذ كانت مسائل الدين واقعة في اختصاصه . وكانت مهمته في المقام الأول أن يتأكد من أن قرار الاتهام قد وضع في الصيغة القانونية الصحيحة ، وأن يدرج رد المتهم على قرار الاتهام ، ويأخذ لقرارات الشهود من كلا الجانبين ^(١) . ثم عمل الترتيبات الأولية الأخرى لتقديم القضية أمام هيئة من المحلفين . وفي أثناء المحاكمة كان على الملك ، أن يشرف على الإجراءات كلها ، ولكن من المهم أن نتذكر أنه لم تكن له وظائف القاضي في المحكمة الإنجليزية (مثلا) فلم يكن له أن يعلق على الإثباتات المقدمة للمحكمة ، ولا أن يستبعد شيئاً من الموضوعات التي يقدمها أحد الفريقين بوصفها غير متصلة بموضوع القضية . أما المحلفون فقد كانوا في آن واحد قضاة في شأن القانون ، و قضاة في شأن الوقائع ، كما كانوا هم القضاة بشأن مدى صلة الإثباتات المقدمة بموضوع القضية . وإذا كان هؤلاء المحلفون هيئة كبيرة — إذ يبدو أن سقراط كما سنرى فيما بعد ، قد حوكم أمام محكمة مكونة من ٥٠ شخص — يعينون لنظر القضية التي ينتدبون لها بالافتراء عند بدء السير في إجراءات القضية . ويجرى الافتراء بطريقة سرية ، فقد كانت المحاكمة أمام مثل هذه المحكمة تعتبر في الواقع محاكمة

(١) لم يكن الشهود يسألون أو يستجوبون في قاعة المحكمة . وإنما كانت الشهادة عبارة عن تسجيل كتابي للاتراعات التي أخذت في الأدوار التصيرية ، ولم يكن في الإمكان إدخال موضوعات جديدة في الدعوى ولكن كان يسمح لكل فريق أن يوجه الأسئلة لفريق الآخر ، وكان يتعمد الإجابة عن هذه الأسئلة .

امام اجتماع عام . وينبغي أن نكون على بينة من هذا الأمر ونحن نقرأ وصف أفلاطون للدفاع .

ولسنا ندرى بطبيعة الحال ما إذا كان الاتهام الموجه إلى سقراط في الأصل الذي صاغه ميلتوس ، إذ أن السجل الرسمي لن يحفظ إلا الصورة النهائية التي وضعها الملك ، لتقديمها للمحكمة للفصل فيها . وفي محاورة أوطيفرون الأفلاطونية التي يرجع تاريخها إلى فترة الإجراءات التمهيدية ، وضع أفلاطون على لسان سقراط قوله إن ميليتوس يتهمه بأنه « صانع آلهة جديدة » (١) . ولكن ليس ثمة شيء من ذلك في الروايات المختلفة لنص قرار الاتهام الذي اختير في المحاكم الفعلية . وربما كانت أدق رواية لهذا النص هي التي وردت في كتاب ديوجينيس ليرتيوس Diogenes Laertius (٢) ، والتي يبدو أنها صورة طبق الأصل للوثيقة الحقيقية التي كانت ما تزال محفوظة في القرن الثاني الميلادي - « إن ميليتوس بن ميليتوس المنتسب إلى محلة بثنوس Pitthus ينهم سقراط بن

(١) أوطيفرون ٣ ب . المفهوم أنه إما أن يكون « الملك » قد رفض تقديم إقرار الاتهام في هذه الصورة ولما أن أئيتوس أفتق ميليتوس أن تخفف التهمة بحيث تصبح اتهاماً غير محدد « باستحداث طقوس دينية جديدة » .

(٢) ديوجينيس ليرتيوس ، ٢ ؛ ٤٠ المرجع الثقة المشار إليه هو فيفوريوس Favorinus الأارلبي (of Arles) وهو ماث مدقق عاش في عهد هادريان Hadrian ، ويبدو أنه رأى الوثيقة الأصلية . ويتفق أفلاطون وزينون معه فيما يتعلق بميئيات الاتهام ، ولكن أفلاطون يضم تهمة « إفساد النشء » في المقدمة ، وربما كان ذلك بسبب أنها التهمة التي عني سقراط بمعالجتها عناية جدية في دفاعه .

صوفرو نيسكوس المتنى إلى محلة ألويس Alopecce ، ويقسم اليمين على صدق اتهامه ، بما يأتي : إن سقراط — أولاً — لم يعبد الآلهة التي تدين الدولة بعبادتهم : ثانياً — أضاف إلى ذلك إفساد النشء . ويطلب المدعى توقيع عقوبة الإعدام ^(١) .

وينبغي أن نكون على حذر من أن نرى فهم أى من فقرتي الاتهام. فمن المؤكد أن التهمة الأولى لا تعنى أن سقراط يعتقد مائسمية ، أفسكارا إلحادية ، ولا تعنى أنه لا يؤمن بقصص الأساطير التقليدية (التي كانت شائعة يومئذ) كما يكثّر من الإقرار في محاورات أفلاطون أنه لا يؤمن بها . فقد كانت ديانة الدولة الأثينية في مجموعها مسألة عبادة ، ولم يكن لها عقائد إلهية ولا كتب مقدسة . ومن المؤكد أنه لم يكن من قبيل الاعتداء على الدين ألا يؤمن الإنسان بأساطير هوميروس والشعراء الآخرين ، وكان الاعتقاد الشائع في هذا الشأن أن الشعراء قد اخترعوا قصصهم لنسالية قرائمهم ^(٢) . وواضح كذلك أن تهمة ابتداع عبادات جديدة ، ليس لها

(١) كانت اقضية من نوع شائع في الإجراءات الأثينية ، - حيث كان المدعى يطلب عقوبة ما واتهم — إذا ثبتت عليه التهمة — يطلب عقوبة أخرى أخف ، وكان على المحكمة أن تطلق أحد الاقتراحين ، ولكن ليس لها أن تتخذ خطأ وسطاً من جانبا . والمفهوم من ذلك أن الجنى في مثل هذه الحالة يفترض أن يتقدم باقتراح معقول .

(٢) لقد جعل بوريديس ، هـ. قل يصفه كل الأساطير بوصفها « خرافات بائنة وضعها الشعراء المجهولون » على مسرح المأساة ذاته (H. F. , 1346) . أما نظرية الدكتور فيرال Verrall الفاتلة بأن الشاعر كان معرضاً للاستقهاد من أجل ذلك فتقول لا يعتمد على سند من التاريخ . ويؤكد إيسوقراط Isocrates أن المآسى التي لقيها هؤلاء الشعراء (هوميروس ، وستيسكوروس Stesichorus وهسيود ، وأورفيوس) تنزى إلى قصاص =

علاقة على الإطلاق ، بالعلامة الخارقة للطبيعة عند سقراط . فبالنسبة
للأثيني العادي لم تكن هذه العلامة تعنى شيئاً أكثر من أنها حالة الغيبوبة ،
المعروفة وواضح كذلك من محاوره ، الدفاع ، الأفلاطونية ^(١) أنه لم
ترد أية إشارة إلى هذه المسألة في المحكمة إلى أن أثارها سقراط بنفسه .
والواقع — كما يصوره أفلاطون — أنه لم يكن ثمة أحد ، ولا المدعى
نفسه يعلم ما يعنيه ذلك القسم من الاتهام . ولكننا إذ قرأنا ما بين السطور ،
استطعنا أن ندرك من محاوره الدفاع الأفلاطونية ما كان يدور في رأس
ميليتوس ، كما ندرك كذلك لماذا لم يستطع أن يبين عما في نفسه .

ونجد سقراط — في محاوره أفلاطون — يتناول الاتهام بطريقة
عجيبة ، فهو لا يقول شيئاً على الإطلاق لينفي الاتهام ، باستحداث ألوان

== الساء المادى منهم على ما جدفوا وهرطقوا . وقد كان أول من اقترح أن يعتبر اعتناق
آراء خاطئة في مسائل الدين اعتداء على الدولة هو أفلاطون نفسه ، في الكتاب العاشر من
محاوره « القوانين » .

(١) في محاوره الدع (٣١ ب) حيث تمنع الفرصة لسقراط أن يتحدث بنفسه عن
« العلامة » يقول « من المفهوم أنها هي التي أعطى ميليتوس عنها صورة ساخرة في قرار اتهامه » .
ولكن اضطرار سقراط إلى أن يقصر القصة بنفسه هو ذاته دليل على أن ميليتوس لم يتحدث عنها .
ولهذا يقال إن هذه « الصورة الساخرة » لم ترد في خطاب ميليتوس وإنما في قرار الاتهام .
ويحدث سقراط ساخراً فيظاهر — كما يقول بيرنت (في المرجع السابق الذكر) بأنه قد
اكتشف لثوه ما كانت تعنيه اللغة الغامضة التي كتب بها قرار الاتهام . رابع أوطيغرون
المتنصب في محاوره « أوطيغرون » الأفلاطونية إلى أن « العلامة » ربما كانت هي ما عناه
ميليتوس حينما تمت سقراط بأنه « صانع آلهة جديدة » أمازون — ولا شك أنه قد قرأ
هذه المحاورات — فهو يردد الإشارة (الذكريات ، ١ ، ١ ؛ ٣) ولكنه لا يصنع ذلك
لأنه لا يقرر أنه ليس ثمة شيء مما يتعلق « بالعلامة » يؤيد الاتهام بالزيف والإخاد .

جديدة من العبادة ، وبمحتال على ثوريط ميليتوس لكي يفسر عبارته الخاصة بعدم عبادة آلهة الدولة بأن المقصود بها هو اتهامه بالإلحاد الصريح ، وعندئذ يستطيع دون شك أن يدفع عن يقين بوجود تناقض بين بين شطري الاتهام^(١) . ومن اليسير أن نرى أن المسألة لا تزيد على كونها استخداما للدعاية في الحدود المباحة لإسكات المدعى الذي لا يستطيع - أو لا يجوز على - تبيان حقيقة ما يقصد إليه . أما المعنى الذي يقصده فثمة إشارة إليه في قسم سابق من محاورة الدفاع ، الأفلاطونية^(٢) ، حيث يقرر سقراط أن المدعى لهم حين لم يجد شيئا أكثر تحديداً يتهمة به ، قد رجع إلى قائمة الاتهامات المتداولة التي كانت توجه إلى الطبقة والحكام ، والعلماء عامة واعتمد على الصورة الهزلية التي رسمها له أرسطوفان في مسرحية السحاب ، بوصفه واحداً من هذه الطائفة (وكان قد مر على ذلك ربع قرن) . والنقطة الهامة في هذا الشأن هي أن العلماء الإيونيين قد درجوا على استخدام كلمة «إله» بطريقة لا علاقة لها بالدين إطلاقاً ، يقصدون بها «الهواء» أو أى شيء آخر يعتقدون أنه المادة التي تتكون منها الأشياء . وهذا هو السبب في أن أرسطوفان قد جعل سقراط يقول بأن «الآلهة» ليست دعة جارية ، في مدرسته ، ومثله يدرس لتلاميذه أن الحركة اللوائية ، خلعت زيوس Zeus عن عرشه ، ويقسم بطائفة من «آلهة من ابتداعه الخاص» هي

(١) الدفاع ٢٦ ب - ٢٧

(٢) الدفاع ١١٨ أ - ١١٩

الفوضى ، والتنفس ، والآثر ، والسحاب ^(١) . ويقصد سقراط في الواقع أن الاتهام بالإلحاد ، لا يستند إلى شيء أكثر من محاولة إثارة المحكمة ضده بتذكيرها بما كان للعلم الأيوبي القديم من سمعة سيئة (وربما كان ميليتوس أيضاً — وإن لم يكن ثم في محاوره الدفاع ما يلقى ضوءاً على هذا الموضوع — قد اعتمد على أن يعيد إلى الأذهان المفضيحة القديمة التي أثبتت سنة ٤١٥ حول تدينيس المقدسات الدينية ، والتي شملت ألكيبادس وغيره من أصدقاء سقراط . بل إنه ربما كان قد اعتمد على احتمال أن بعض المخلفين كان يعرف من الماضي القريب أن سقراط كان على صلة بشبان من الفيشاغوريين المعجبين به ، من المدن التي لم تذهب عنها صفة الدول الأعداء ، إلا وشيكاً جداً) . ويتضح الآن السبب في أن المدعى لم يكن يستطيع أن يكشف عن خبيثة نفسه . فيمقتضى العقد العام الذي وضع حداً لاضطرابات سنة ٤٠٤/٢ ، لم يكن في الإمكان محاسبة أى مواطن على الأخطاء التي ارتكبت قبل هذا التاريخ ، ولم يكن في وسع القضاء أن ينظر في أى اتهام مبنى على أعمال يقال إنها ارتكبت في عهد سابق . فقد كان من مهمة أنيتوس حينئذ ، بوصفه الباعث الأول لإصدار هذا العفو العام ، أن يتأكد من أن شروطه لا تنتقض نقضاً صريحاً .

والشطر الثاني من الاتهام وهو ، إفساد النشء ، أوضح في مدلوله . والواقع أن المدعى وأهوانه في أثناء المحاكمة قد تركوا مقصدهم غامضاً .

(٣) انظر أرسطوفان — السحاب ، صفحات ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،

٣٨٠ ، ٦٢٧ وغيرها .

ونجد سقراط على الأقل كما يصوره أفلاطون - يقرر دمهته البالغة وحيرته بشأن الضرر الذى يتهم بإحداثه لأصدقائه - أى لون من الضرر هو؟ ويقول إنه لا يمكن أن يتهم بأنه يدرس لهم ذلك النوع من المراء عن العلوم الطبيعية ، الذى يجرى على لسانه فى مسرحية أرسطوفان ، وبأنه يمارس مهنة السوفسطائيين المحترفين . فن المصهور عنه لدى الناس جميعاً أنه لم يكن معلماً ، محترفاً ولم يكن له « تلميذ ، قط . ولا يقل عن ذلك شهرة أن التأملات العملية التى يستخر منها أرسطوفان ليست موضوع مناقشاته . ولو أن المدعين عليه كانوا غلصين لسكان عليهم أن يعترفوا بأن الضرر المزعوم الذى يصيب الشباب الذى يمتعه الاستماع إليه وهو يحاسب مواطنيه الحساب العسير ، هو فى الحقيقة كشف الجهالة البليدة المطمئنة إلى جهلها التى يمارسها شيوخهم . وإذا قرأنا ما بين السطور تبين لنا أن ما كان يغضب أيتوس حقاً هو أن نقد سقراط لضعف مقدرة السياسيين من أمثاله كان من شأنه أن يهبط بسمعتهم وينشئ فى ردوس المدققين من الجيل الناشئ اتجاهات فكرية ناقداً ، ينتقدون به الديمقراطية ونظمها - وكان ذلك حقاً ولا شك^(١) . ونستطيع مطمئنين - أن نستنتج أنه لا بد أن كان هناك شئ أسوأ من ذلك يثير حفيظة المدعين ، ولكن لديهم من الأسباب ما يدعوم إلى عدم الإفصاح عنه بالكلية .

ونستطيع أن نزداد إدراكاً لقصد المأسى إذا قلبنا صحاف الذكريات ، التى كتبها زينون ، وهى دفاع عن ذكرى سقراط ، أمام

هجوم مكتوب ، أخرجه أحد المدعين . والظاهر أنه المعلم بوليقرات Polycrates وهو كاتب مغمور يبدو أنه سجل القضية التي رفعها أفيتوس وميليتوس في ثوب أدبي بعد المحاكاة يبضع سنوات . ويذكر زينون كذلك عبارة صغيرة أو عبارتين أساء فيهما هذا المدعى ، تصوير شخصية سقراط . فقد اتهمه بأنه يعلم الشباب الاستخفاف بالجيل السابق وعدم إعطائهم ما ينبغي له من احترام ، وبأنه يستخرج معاني مفسدة الأخلاق من بعض مقطوعات الشعراء ^(١) . ولكن التهمة التي يهتم زينون اهتماماً خاصاً بدحضها تتعلق بأمر أكثر تحديداً . فقد اتهم « المدعى » سقراط بأنه كان معلماً لأفريثياس والكيكياس . ويناقش زينون هذه المسألة مناقشة مطولة ، فيقول إن الأمر لم يرد على أن كلا منهما قد صاحب سقراط مصاحبة طوية تكفي لأن يتعلما شيئاً من مهارته التي لا نظير لها في الحديث ، وقد أساء استخدام هذه المهارة لتحقيق أغراضهما الخاصة ^(٢) .

(١) الذكريات (١ ؛ ٢) وأما كن أخرى متفرقة . التهم التي يعالجها هي : تعليم الصغار عدم توقير آبائهم ، وانتقاد بعض النظم الديمقراطية . كاستخدام الفرعة في الاختيار للوظائف ، وتعليم الكيكياس ، وأفريثياس ، واستخراج معاني سيئة من أقوال الشعراء . وإذا كان سقراط في كتابات أفلاطون يعامل الشعراء بالسخرية ، وإذا كان كتاب «الدفاع عن سقراط » الذي ألفه ليبانيوس Libanius — خطيب القرن الرابع الميلادي العنبر — قد احتفل احتفالاً شديداً بهذه التهمة وهو كتاب مبنى كما هو واضح على كتيب بوليقرات ، فمن المحتمل أن هذه اللقطة الخاصة بالشعراء قد أثيرت في المحاكاة بوصفها جزءاً من القضية ، ويحتمل كذلك أن يكون سقراط قد قال بالفعل بعض ما نسب إليه من الطعن في أخلاق الشعراء .

(٢) الذكريات (١ ؛ ٢ ؛ ١٢) « قال المدعى إن ههنا من معارف سقراط قد سبوا للدولة من الأضرار ما لم يسببه أحد آخر . فقد كان أفريثياس أكثر رجال الحكماء »

وقد حال العفو العام الذي صدر سنة ٤٠٤/٣ دون إشارة إلى هذا التأثير المزعوم على «الحائزين الكبارين» ، وقد حرص أئيتوس دون شك على أن يظل الاتهام خامساً . وهذا هو السبب في أننا لا ندرك على الفور جغزى إصرار سقراط في محاورة أفلاطون على القول بأنه لم يكن له قط «تلميذ» حقيقى^(١) . وقد أفصح بوليقرات في كتيبه عن المعانى التي اضطرت ميليتوس - بسبب الإجراءات القانونية - أن يلج إليها بمجرد تلميح . ونرى مما كتبه أيسوقراط أنه اتهم سقراط في حديث «طول بأنه هو معلم ألكيادس» . ويرد أيسوقراط بإنكار هذه الواقعة على النحو الذى أجراه أفلاطون على لسان سقراط^(٢) . وربما أنه قال الكلام ذاته عن أفريدياس ، وهذا يفسر السبب في أن الخطيب ألكينس بعد ذلك بخمسين عاماً قام يذكر «الأتينيين فيقول لهم . «لقد أعدتم سقراط لأنه كان معلماً لأفريدياس»^(٣)

== الاستبدادى ظالماً وعظماً وكان ألكيادس أكثر رجال الديمقراطية نبلاً من قيود الأخلاق
حوالمبادئ . . . وجاء بعد ذلك رد زيشون بالتفصيل .

(١) الدفاع (١٣٣) . «لأنى لم أعلن قط أى رضاء آثم على هؤلاء الذين يقال خطأ
لأنهم تلاميضى ، ولا عن أى شخص آخر . ولم أكن قط معلماً لشخص كان من كان . . .
الحج . أما الأشخاص المعدون بقوله « هؤلاء الذين يقال إنهم تلاميضى » فليسوا هم أفلاطون
وشباب عصره . فهؤلاء لم يطيعوا المدينة في ضرر يمكن أن يظن أن سقراط مشغول عنه .
ونحن نعرف من أفلاطون نفسه (رسائل ، ٧ - ٣٢٥ ب) أن الحكم على سقراط
بالإعدام كان هو وحده السبب في هجول أفلاطون عن الاشتغال بالسياسة مدافعاً عن
«الديمقراطية المأداة» .

(٢) لميسوقراط (١١ ؛ ٥) . إنك (يا بوليقرات) قد وصفت ألكيادس بأنه تلميذه ،
مع أن أحداً لا يعرف أنه تعلم قط على يديه .
(٣) ألكينس (١٧٣ ؛ ١) . لقد أعدتم سقراط لأنكم اتهمتموه بأنه قام بتلميح أفريدياس

ولا يمكن أن نذكر دوافع الادعاء إلا إذا فهمنا أن أئيتوس كان حقا يعتبر سقراط وتلاميذه المسئولين عن الشر الذي أصاب أثينا على يد الرجل الذي عرف الأعداء كيف يوجهون إليها الضربة القاضية ، والرجل الذي كان هو القائد في فترة الإرهاب التي تلت سقوطها . ولا شك أن الذي أثار رية أئيتوس هو ذلك اللون من النقد العنيف الذي ما فقه سقراط في محاورات أفلاطون بوجهه إلى المشاهير من ساسة الديمقراطية . ويكاد يكون من المؤكد أنه ذو شخصيا قد ذاق الشعور بالهوان والضعف إزاء استجواب سقراط ، ولكن السر الحقيقي في العداوة كان أعمق من ذلك فالواقع أن سقراط لم يقم بتعليم الرجلين الذين قاما بالدور الأكبر في تحطيم المدينة التي ينتميان إليها ، ولكن حفظه العاثر قد شاء له أن يكون صديقا لكليهما ، وكان مما لا محيص عنه أن يظن أنه لهما أكثر من صديق ^(١) .

وكان مما أثار دهشة الجميع أن سقراط لم ينف نفسه بمحض اختياره . بل بقى في أثينا ينتظر في هدوء محاكمته التي حدثت في الربيع أو مسهل الصيف عام ٣٤٩ . ولا شك أنه كان يرى - من وجهة نظره الدستورية الصارمة - أنه من حق الدولة أن تنظر في أمر أحد مواطنيها لتختبر أخلاقه ، وكان أبسط واجبات هذا المواطن أن يواجه الاختبار .

(١) نستطيع أن نذكر الوضع إدراكا أفضل إذا تذكرنا إعطامن الشديدة التي نهالت على أحد رجال السياسة من ذوى الميول القلبية في أثناء الحرب العظمى الأولى ، على أساس كلمة عن « وطه الروحى » يبدو أيها لم تصدر عنه أصلا .

وقد حفظ لنا أفلاطون دفاع سقراط عن نفسه ، وكان حاضرا في المحكمة . وتحمل هذه الخطبة من الخصائص المميزة ما يجعلنا نطمئن إلى أن رواية أفلاطون لها قد سجلتها بدقة فائقة ^(١) . ولم يكن سقراط حريصا على حلب الموت ، بل على العكس من ذلك طالب في صراحة بتبرئة مشرقة ، بشرط واحد ، هو ألا تكون هذه التبرئة على حساب الحق ^(٢) وكان حريصاً وهو يتحدث عن صلته بالسكيا دس وأقريثياس ، بما تفرضه عليه المحافظة على روح العفو العام ، فلم يقل شيئا وراء الحقيقة المجردة ، وهي أنه لم يكن في يوم من الأيام « معلما » لأحد . وقال عن سوء الفهم الشائع بالنسبة لشخصه أنه بقايا من الصورة الساخرة التي صوره بها أرسطوفان وغيره من الشعراء المزليين . أما تهمة « استجدات شعائر دينية جديدة » ، وإهمال عبادة الآلهة ، فقد اكتفى بأن يبين أن ميليتوس نفسه لا يرغب - أو لا يقدر - أن ينصح عن قصده . وأما الزعم بأنه « مفسد للشباب »

(١) إن الشكوك التي أثارها بعض الباحثين الألمان حول هذه البقطة في وقت من الأوقات ترجع في الواقع إلى افتراضهم أن الهدف الأول للشخص المتهم لابد أن يكون دائما « التضلم » بأي شيء . وهذا قد يكون خطأ بالنسبة لمعظم الناس ، ولكنه لا يصدق على الناس جميعاً ، وهو أقل ما يكون صدقا بالنسبة لرجل كسقراط .

(٢) تلك رواية أفلاطون (الدفاع ١٩) أما زينون في « دفاعه » التي كتب متأخرا عن « دفاع » أفلاطون فقد تملكه الحيرة التي تملك بعض الألمان من أن الخطبة الأفلاطونية التي يقبلها على أنها تسجيل صادق « لأسلوب سقراط الرفيع » لا تعتبر مقالة حكيمة من رجل كل همه أن ينال التبرئة . ومن ثم فإنه يضع ذلك التفسير المضطرب وذاه أن سقراط قد قصد عمداً إلى إثارة المحكمة لتعكير عليه بالإعدام ، لكي « يفارق » الجائذون أن يعاني العسى وغيره من مساوئ الشيخوخة ! (زينون ، الدفاع ، ١ - ٨) .

فقد أخذه مأخذ الجحد أكثر من سابقه ، وإن كان ما يزال أخذاً هابراً خفيفاً ، واختار أن يرد عليه باستدعاء أقرباء أفلاطون الذين يكبرونه (أفلاطون) وغيرهم من الرفقاء صفار السن ، ليثبت فساد هذا الزعم . ولو كان قصده — ولم يكن كذلك في الواقع — مجرد الوصول إلى البراءة بأى ثمن ، لمضى حيقثد يسرد شيئاً عن ماضيه الحربى الممتاز ، وتحديد الجريء لأفريثياس فى شأن ليون السلايسى ، وهناك كان يمكن أن ينتهى الأمر . ولكن مثل هذا الدفاع كان يعد خيانة لرسائله ، ومن ثم فإنه لم يقم بأية محاولة لتفادى النفور الشديد الذى كانت ترمق به الديمقراطية الأثينية المتشككة كل صيت . ذائع بناله ، المهارة ، الفائقة . وجعل قصة المرافقة — التى أعلنت أنه أحكم الناس — نقطة الارتكاز فى حديثه كله ، وبين بلا خفاء ولا موارد كيف أدت به إلى أن يأخذ على عاتقه مهمة إقناع الناس جميعاً بلا تفريق ، من أول الساسة البارزين إلى مادون ذلك ، بما هم عليه من جهل شائن بالليون الوحيد من المعرفة ذى الأهمية العظمى . وهو معرفة الطريقة التى يصلح بها الإنسان روحه وأرواح الآخرين بقدر ما فى طوقهم من صلاح . وقال إن القعود عن هذه الرسالة هو خروج عن طاعة الله ، وإن المحكمة أن تيقن أنه لا شئ إلا الموت يمكن أن يصده عن المضى فيها ، وحق أعماله الحربية الباهرة وموقفه فى شأن ليون لم يوردها فى خطبته إلا ليعين كيف كان من المستحيل إهمال القيام بواجبه الصريح . وقرن إلى قصة تحديه لأفريثياس تلك القصة الأخرى التى لا تقل عنها جرأة : قصة تحديه للديمقراطية ذاتها بشأن محاكمة القادة الأرجينوزيين . ومن ثم فلم يكن

من المستغرب أن تصل المحكمة إلى قرار الإدانة ولو أنه كان بأغلبية ضئيلة فإذا جعلنا في اعتبارنا الأهمية التي استخدمها في خطبته ، وأن المحكمين — لو أخذناهم بجميع الاعتبارات — كانوا يكتنون مؤتمراً عاماً ، فإن النتيجة التي وصلوا إليها يمكن أن تفسر بتحررهم الفكري أكثر مما تفسر بأي شيء آخر ^(١) .

وكان على سقراط الآن أن يعرض توقيع عقوبة أخرى على نفسه بدلاً من الموت . ولا بد أن كل إنسان قد توقع أن يعرض الإبعاد والنفي . ومن الجلي أنه لو فعل ذلك لرضيت المحكمة . ولكنه مرة أخرى كان وفياً لمبادئه ، وقال إنه يرى أن رسالته كانت خيراً ونعمة وهبها الله لأتينا ، وأن جزاءه يمكن أن يعترف به بأن تضي عليه تلك المزية النادرة التي تمنح للفائزين في ألعاب الأولمب ، وللقواد البارزين ، ولققة أخرى من الناس ، وهي مقعد مدى الحياة على منصة الرئاسة (Prytaneum) وإذا كانت هذه هي وجهة نظره ، فلم يكن ضميره يسمح له أن يعرض توقيع أية عقوبة على نفسه أو أي شر حقيقى يقيق به . ولكن فرض غرامة مثلاً ليس شراً في ذاته ، ما دام الإنسان يملك أداءها ، وقد قال سقراط إنه مراتح الضمير إذ يعرض أداء مثل هذه الغرامة . ومن ثم

(١) نلم من أفلاطون (الدوام ٣٦ ، ١) أن لأغلبية في صف الإدانة كانت ستين صوتاً . وفي ديوجينيس لايرتيوس ٢٢ ؛ ٤١ يقال إن سقراط حكم عليه بأغلبية ٢٨١ صوتاً زيادة على الذين صوتوا في صف براءته . ولا بد أن ثمة شيئاً من الأيس هنا . ويبدو من المحتمل (انظر حاشية بيرنت) أن المجموع السكلى للمحكمين كان ٥٠٠ وأن ٢٨٠ صوتوا بالإدانة ، و ٢٢٠ بالبراءة .

فقد عرض أن يدفع المبلغ الذى يملك أدائه فى الحال وهو « مينا » واحد^(١) ، وأضاف لتوه أن أفريطون وأفلاطون وغيرهما من الأصدقاء قد حملوه على أن يرفع العرض إلى ثلاثين « مينا » وأنهم مستعدون لضمان هذا المبلغ . وكان من الطبعى جداً أن يفعل المحكمون غضباً من هذا الحديث القاطع فيصوتوا على الحكم بالإعدام بأغلبية أكبر^(٢) من تلك التى أصدروا بها قرار « الإدانة » .

وطبقاً لما يقوله أفلاطون وزينون كلاهما ، فإن سقراط قام هندئذ بتوجيه كلمات نهائية قليلة لتلك الأقلية من القضاة التى تكلمت فى صفه منذ البدء إلى النهاية . ولا يجرى زينون على لسانه أكثر من إعادة ما سبق أن قاله من إعلان براءته ، مع زيادة طفيفة ، ولكن رواية

(١) لى نحك على قيمة هذا العرض بنبى بطبيعة الحال أت نأخذ فى اعتبارنا القيمة الممرائية العالية للفضة فى ذلك الحين . ومن الغامر أن « المينا » الواحد كان يعتبر فى المتاد جبلاً مقولاً لعداء أسير فى الحرب . وكان مبلغ ثلاثين مينا كثيراً ما يرد على لسان الخطباء فى ذلك العصر على أنه مهر حسن لفاتة من أسرة متوسطة . ونجد أفلاطون بعد ذلك يميل يتوقع أن ترف إليه ابنة عمه لقاء هذا المبلغ (ملحق القوانين ، ١٣ — ٣٦١ هـ) وبصر زينون (الدفاع ٢٣) على أن ينبى عن سقراط أنه تقدم أو سمح لأحد من أصدقائه أن يقدم بمثل هذا العرض . وهو هنا يعتمد مناقضة أفلاطون ، ولا يستحق قوله أى اعتبار فقد كان أفلاطون حاضراً فى أثناء المحاكمة ، بينما كان زينون غائبا فى آسيا ، ومن الواضح أنه لا يدرك أن عرض سقراط أن يدفع غرامة ليس اعترافاً منه بأنه مدان .

(٢) بحسب ما جاء فى ديوجينيس ليرتيوس (٢ ، ٤٢) تريد هذه الأغلبية ثمانين صوتاً من تلك التى صدر بها قرار الإدانة فإذا كان هذا حقاً فينبى أن تكون الأصوات ٣٦٠ إلى ١٤٠ (وليس كما يقول بيرنت متجاوزاً عما جاء فى « الدفاع » ٣٨ ج أنها كانت ٣٠٠ إلى ٢٠٠) .

أفلاطون تضيف شيئاً أبرز من ذلك وأدل على شخصية سقراط . فهو يقول : إن الحكم الذى صدر عليه ليس شراً . فالموت على أسوأ الأحوال . ليس أكثر من راحة غير مقطوعة ، ومن ثم فهو ليس شيئاً رديئاً . ولكن هناك عقيدة أخرى — هى عقيدته الخاصة بلا خفاء — مؤداها أن الموت للرجل الصالح هو دخول فى حياة أفضل . وفى تلك الحال يمكن لسقراط أن ينعم بحياة المشول بين يدى القضاة الاتقياء الحكماء الذين يقضون بين الموتى ، والذين سينقضون دون شك قرار تلك المحكمة المتحيزة التى ينقصها العلم الصحيح بالأمور ، كما ينعم بمساعدة اللقاء مع مشاهير الأيام الغابرة ، ومن بينهم أشخاص مثله حكم عليهم معاصروهم ظالماً وعدواناً . ولن يكون ثمة خطر هناك من أن يقطع عليه عمله فى استجواب رفقاءه حكم آخر بالإعدام^(١) . فإذا كان هذا هو المصير الذى

(١) فى محاوره « الدفاع » (٤١ ب) ذكر أفلاطون بالاميدس Palamedes نموذجاً للشخص الذى حكم عليه بالإعدام ظالماً . ولقد كان مما يتناقى مع غرض زينون الدفاعى أن يجعل تلك المبارات التى تقى بأن سقراط يؤمن عقيدة غريبة كل الفراسة على الأثينيين فى مجموعهم كاعتقاد فى الحياة الآخرة . ومن ثم فإن احتفاظه بالإشارة لى بالاميدس على أنه نظير له (زينون — الدفاع ٢٦) تكون له دلالة كبيرة . وليس هذا دليلاً قاطعاً على أن سقراط قد نطق بهذه المبارات ، مذ كان زينون يبرأ عن إلحاحه . فى ذلك الوقت ، ولكنه يدل على أنه قرأ محاوره الدفاع الأفلاطونية وأخذها على أنها رواية صادقة لما حدث . وروايته هو خطبة سقراط الأخيرة هى ذاتها رواية أفلاطون مع حذف ما يتعلق بالخلود . وكذلك فى نهاية محاوره سيروبيدا (٨ ، ٧ ، ١٧ وما بعدها Cyropaedia) حيث لا يقتضى غرضاً دفاعياً بقاء على اسان سيروس المحضر كلاماً عن الخلود شديد الشبه بما جاء فى محاوره « فيدون » الأفلاطونية . ولنا أن نستنبط بلا تمسك أنه — مثله فى ذلك مثل أفلاطون — قد ورث هذه العقيدة من أستاذه الذى تتلمذ كل منهما عليه .

تسوقه إليه المحكمة فإمّا — دون قصد منها — تسوق إليه أكبر خير
يمكن أن يصل إليه .

وكان الإجراء المعتاد في أثينا أن الذى يحكم عليه بالإعدام يساق
في التورّ إلى ، الأحد عشر ، الذين يناط بهم تنفيذ القانون ، وأن يجرى
إعدامه خلال أربع وعشرين ساعة من صدور الحكم عليه . ولكن حالة
سقراط كانت استثناءً من هذا الأمر . فقد كان هناك تقليد بأن يرسل
سنوبيا ، زورق مقدس ، إلى معبد أبولو في ديلوس احتفالاً بذكرى
تخليص أثينا على يد تيسوس Theseus في عصر ما قبل التاريخ ، من
جزيرة السبعة الأولاد والسبع البنات ، التي فرضها عليها مينوس
الكنوسوسى Menos of Gnosus وكانت المدينة تطهر تطهيراً دينياً
قبل إرسال الزورق ، وكانت مراسم التطهير تحول دون تنفيذ أية أحكام
بالإعدام حتى يعود الزورق من رحلته . وقد حدث من قبل المصادفة أن
فترة التطهير الديني هذه كانت قد بدأت سنة ٢٩٩ في اليوم السابق لمحاكمة
سقراط ، ومن ثم لم يكن بد من تقرير ما ينبغي أن يتخذ بشأنه (لم يكن
من الممكن أن يبدأ النظر في الأمر حتى يصدر الحكم بالفعل ، إذ لم يكن
أحد بطبيعة الحال يتوقع أن يعرض سقراط في حالة إدانته شيئاً آخر
غير الحكم على نفسه بالنفى) ، وقد بذل الثرى أقریطون ما في وسعه من
جهد لإقناع المحكمة بترك سقراط حراً حتى يعود الزورق المقدس ،
متعبداً بأن يقدم الضمان بأنه لن تبذل أية محاولة للهرب ^(١) . ولكن

(١) أطلطون (فيون ١١٥ د) لم يكن الحبس عقوبة توقع على المواطنين في أثينا
لأنهم إلا العديدين بأموال أميرية ، فكانوا يحبسون عادة حتى يؤفوا بما عليهم من دين .

هذا العرض رفض . ومن ثم أرسل سقراط إلى سجن ، الأحد عشر ، حيث بقي مقيداً يعض الأغلال ، وإن كان ذلك لم يمنع استمتاعه بصحبة أصدقائه كل يوم . وإذا تأخر الزورق شهراً^(١) بسبب معاكسة الريح ، فقد انقضى ذلك الشهر كله في مذاكرات يومية ، ويبدو أن بعض أصدقاء الفيلسوف من الأجانب ، من أمثال فيدون الأليزي ، والشابين الطيبين سيمياس Simmias وسيبس Cebes قد بقوا تلك الفترة برمتها في أثينا . وكان سقراط كذلك يسلي نفسه بقرض الشعر لأول مرة في حياته ، خالف نشيداً لأبسرار ونظم خرافات أيسوب^(٢) . وقد فسر هذا بقوله إن حبلأ كان يعاوده طيلة حياته يؤثر فيه بأن يمارس الموسيقى ، وقد كان يظن في الماضي أن معنى ذلك التوجيه هو أن يبذل الجهد في أداء « رسالته » ، إذ أن الفلسفة هي أصدق ألوان الموسيقى . ولكن لما كان الحلم قد عارده في أثناء سجنه حيث لم يعد هناك مجال للاستمرار في أداء رسالته ، فقد دعت التقوى أن يمثل لتوجيهاته بمعناها الحرفي .

وقام أصدقاء سقراط بمحاولة أخيرة لإنقاذه ، برشوة حراسه ليتخاضوا عن هربه . وأعدت الترتيبات كلها ، ثم لكي يتقوا أى امتعاض قد يحسه الفيلسوف من جراء توريث مواطنيه في عمل قد يعود عليهم

(١) تبين من كلام أفلاطون في محادثة « فيدون » (٨٠ ج) أن هذا التأخير كان كبيراً . أما تحديد لالة « شهر » كامل فيجب في كلام زينون (ذكريات ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٢) (٢) أفلاطون ، « فيدون » ٦٠ د وما بعدها والآيات للزعومة التي تبدأ بها هذه القصيدة وتلك موجودة في ديوجينيس ليرتيوس (٢ ، ٤٢) .

بمواقب وخيمة ، أبدى المعجبان الطيبان اللذان لا تملك السلطات الاثنية عليهما أى سلطان ، أن يقوما هما بهما جميع النفقات الضرورية^(١) ولكن سقراط كان صادقا لطبعته ، فرفض اغتنام الفرصة . ويشرح أفلاطون في محاوره ، أفريطون ، سبب هذا الرفض ، وهو أن الحرب سيفسد المبادئ التى أنفق حياته بأكملها فى الدعوة إليها . لقد كان الحكم الذى صدر عليه بالإعدام باطلا فى الحقيقة ، وكان الوصول إليه نتيجة تشويه للحقائق مشين للذين أقاموا عليه الدعوى . ولكنه كان حكما قانونيا لمحكمة مؤلفة بطريقة قانونية ، فمن حق الدولة حينئذ أن تضعه موضع التنفيذ . وأن الخطأ الذى ارتكب فى حق سقراط خطأ لم ترتكبه أيينا ، ولكن ارتكبه أنتيتوس وميليتوس . فإذا حرب سقراط من السجن فإن ذلك يكون جريمة فى حق الدولة وقوانينها ذاتها ، وهو خيانة لروح المواطنة . لقد كان لسقراط من الحرص على إرضاء الضمير كل ما بالمجادل من عقيدة ، فى العصر الحديث ، لكن حرصه ذاك كان متزجا باحترام الضمير العام ، وليس هذا مع الأسف معتادا فى مثل هذه الحالة الأخيرة .

وقصة آخر يوم له على هذه الأرض كما يرويها أفلاطون فى محاوره فيدون ، وقد كان غائبا ولكن ، كانت لديه الوسائل الكاملة للحصول على المعلومات من الذين كانوا حاضرين يومئذ ، وكان يكتب لى يقرؤه ، هذه القصة ربما كانت أروع شيء كتب فى النثر الأدبى فى

(١) أفريطون ، ٤٥ ، ب .

أوروبا . فقد كان سقراط قد تلقى أنباء الوقت المحدله لمغادرة الحياة الدنيا قبل ذلك بيومين ، في حلم ، ، ووجده أصدقاؤه في محبة زوجته وطفلها ، فأرسل بهما إلى المنزل على الفور ، بحجة ضرورة الحصول على قسط من الراحة (ويبدو أن كسانثيا والطفل كانا قد قضيا الليلة في السجن) ، وقام بينهم ببشاشة طاعته المعبودة — وكان المرشح من طبيعته بقدر ما كان من طبيعة توماس مور Thomas More — وتحدث كثيراً عن اعتقاده بأن الموت بالنسبة للرجل الصالح هو بمثابة رفع الستار عن رواية كانت حياته كلها مجرد عرض لها : ألا وهي رواية تحرير الروح من « حظيرة » البدن أو « محبسه » حيث كانت حبيسة إلى تلك اللحظة بأمر الله ، لحكمة عليا يعرفها هو ، لنستمتع بالحرية الكبرى في عالم أفضل ، حيث يعرف الإنسان الحق والحقيقة مواجهة بلا حواجز ، ولا « يتطلع إليها خلسة » من خلال شبك العيون . وإن حياة تنقضى في « الفلسفة » — في البحث عن الحقيقة من أجل الحقيقة ذاتها — فهي في ذاتها إعداد طويل لهذه الدرجة الرفيعة التي ينعم بها الإنسان ، كما أنها هي العبادة الحققة لله الذي يريد منا في بساطة أن « نصلح الروح » — ذلك الشيء الموجود في داخل كيانتنا الذي يفكر ويعرف — « بقدر ما وسعنا الجهد » . وقال : إنه ما دام قد أمضى حياته في عبادة الله على هذا النحو ، فإن له أن يتطلع في ثقة إلى المستقبل الذي ينتظره . ولما وجد أن صديقيه الشابين الطيبين ، سيبيدس وسيميئاس ، قد اضطربت في خاطرهما شكوك « علمية » حول الروح ، وأنها قد لا تزيد على أن تكون وظيفة زائلة من وظائف الجسم ،

خصص صباحه الأخير كله للتباحث معهما ، مقدماً لهما مبرراته الخاصة لما يعتقد من « تميز الروح الحقيقي عن البدن » ، ومبدأ الأسباب التي يرى عليها اعتقاده بأن الروح لا تولد مع الجسم ولا تموت معه ، وإنما تأخذ نصيبها من خلود الحق والخير الذي تعرفه هي معرفة حقة . وكان طوال المناقشة يدور عليه التحور من اللحم لما يفتظره من الموت الوشيك ، وكذلك من الالهة اللاهفة إلى التعلق بعقيدة تضيئ السكينة على النفس ، دون تقدير كامل لكل ما يمكن أن يقال ضد هذه العقيدة .

ولما انتهت المناقشة — وقد انتهت بصورة متخيلة لمصير الصالحين والشريرين في عالم الغيب — انسحب سقراط ليعمد بدنه للدفن ، حق لا تؤدي المراسم الضرورية على جثمانه بأيدي الآخرين ، وليقابل الأطفال والفساء من أسرته ، مقابلة خاصة أخيرة . ولا بد أنها كانت مقابلة طويلة ، فقد كان الغلام قد بدأ يخيم في نهاية يوم ربيع أو يوم صيف حين عاد إلى أصدقائه . وعند غروب الشمس جاء « ضابط الأحاد عشر » — أو « مدير السجن » ، كما نستطيع أن نسميه — لياقي تحية وداع رسمية — لم تخل من الدموع — « لاشجع وأنبل وأفضل رجل سُلم إليه » . ثم ظهر الشخص الذي سيقوم بالتنفيذ الفعلي لأمر الإعدام يحمل جرعة السم ^(١) التي كان ينفذ بها حكم الإعدام في أثينا ، فتناول سقراط

(١) لا يذكر أفلاطون قط اسم السم الذي استخدم ، ولكننا ألم من وصف حالات إعدام أخرى أن نبات « الثوكران » كان هو المستخدم عادة . ويدل وصف وفاة سقراط على أن الدمار يؤدي فيه يبرودة تنفص في الجسم ابتداء من القدمين ، تصبحها حركة تشنجية تنشأ =

منه الوعاء في رباطة جاش ، وكان عليه أن يسكب بعض ما فيه قرباناً
و صلاة قبل أن يشربه ، لولا أن نُبِّهَ إلى أن السكية المعدة من الأسائل
لا تسمح بالإسراف فيها . فدعا بكلمات قليلة من أجل « مرور سعيد » إلى
العالم الآخر ، وشرب الكأس دون أن يظهر عليه أى نفور أو امتعاض .
وعند ذلك لم يستطع أصدقاؤه أن يحتفظوا برباطة جأشهم ، وأخذ عدد
منهم ينشج بصوت مسموع ، ووصل إهميسار الأعصاب بأحدهم
— أبولودوروس Apollodorus — إلى حد أن سقراط نفسه دعاه إلى
التجمل اللائق . وتنفيذاً لتعليمات ضابط السجن أخذ سقراط يذرع
الغرفة جيئة وذهاباً بعض الوقت حتى بدأ يحس بقدميه تتأفلان ، ثم
استلقى على فراشه المصنوع من القش وغطى رأسه . ودل جسده باليد
على أن الحذر أخذ يرتفع تدريجاً نحو منطقة القلب . وبعد فترة من
الصمت رفع الرجل الشيخ عن رأسه الغطاء لحظة ليلقى بهذا الطلب :

« يا أفریطون ، إننا مدينون لآسكليبيوس Asclepius بديك ، فلا
تفس أن ترد الدين ، وكان هذا آخر ما قاله ٤ . هل كان يحاول في غير
وضوح أن يتذكر حادثة تتعلق بمرض أحد الأطفال في الأسرة ؟ أم
أنه وعد بهذه الهبة لإله الشفاء لأنه كان يرجو أن يفيق من حى الحياة
معاثي ؟ وبعد لحظة أخرى حدثت حركة تشنجية ، فلما رفع الغطاء عن
الجلثة كانت قد فارقتها الحياة ، وعندئذ أسبل أفریطون عينيه وأطبق فيه ،

== عن وصول أثر السم إلى القلب . وإذا أردت الإطلاع على رأى طبيعى أن المادة السخنة كانت
هى الهوكرا ، انظر بيرنت — فيدون — الملحق رقم ١ .

وهكذا انتهى صديقنا ، الرجل الذي نعتبره أفضل أهل عصره وأحكمهم وأشدهم استقامة

ولقد قص السكندريون القصص عن الآسى والحزن اللذين خيلا على الآثينيين ، وكيف قتلوا ميليتوس وكرموا سقراط بإقامة تمثال له . ولكن هذه القصص ظهر من زمن بعيد أنها أسطورية . لقد كان بعض الساسة البارزين في الديمقراطية التي عادت إلى الحكم يرهبون سقراط باعتباره هو الحافظ لالكيادس وأقريثياس ، وكان هؤلاء الساسة يرغبون في إخراجهم من أثينا ، ولكن لم تكن هناك رغبة في القضاء على حياته ، ولم يكن من الممكن أن يكون سقراط موضع عداوة ، عامة ، وقد رأينا ما يقرب من خمس وأربعين في المائة من قضائه في صف تبرئته . ولم يكن هناك تحول في الشعور العام بعد موته ، فقد بقيت عواطف الناس منقسمة حول سقراط كما كانت حول الكيادس نفسه ، ويتضح هذا من اللغة التي استخدمها إيسوقراط الذي كان يعرف سقراط وإن لم يكن وثيق الصلة به . فإيسوقراط يقول لبوليقرط إنه حين اتهمه في كتيبه بأنه كان معلم الكيادس لم يكن يقول حقاً ، ومع ذلك فلو أن هذه القولة كانت حقاً لكانت تحية عاطرة لذكرى سقراط أكبر من كل ما يقوله أولئك الذين اتادوا لإغداق الثناء عليه .^(١)

(١) إيسوقراط (١١٠ ؛ ٥ - ٦) لقد قرأ إيسوقراط دون شك محاوره « الدفاع » الأفلاطونية ، ولكن لنته تدل على أنه كان يركن إلى فريق من قرائه ممن يعتقدون بذكرى سقراط . وازن في صدد اختلاف الرأي حول الكيادس — بين إيسوقراط ١٦ من ناحية وبين ليزياس ١٤ من ناحية أخرى .

إن سقراط ليس مدينا بخلود شهرته باعتباره شهيد الفلاسفة إلى أى
انفجار عاطفي شعبي عنيف فحسب ، من قبل ديمقراطية فياضة المواطنين ، بل
إلى العناية الإلهية التي منحتها صديقا أصغر منه سناً وتأهله ، ألا وهو
الرجل الأوحـد في التاريخ ، الذي جمع بين العظمة البالغة بوصفه مفكرا
فلسفيا ، وعظمة أخرى تساويها وهي تمكنه من اللغة . ومن ثم أصبح
بالوساطة أو بغير وساطة هو المعلم لكل رجل مفكر منذ عصره إلى اليوم .



الفصل الرابع

فكر سقراط

ما هي أهمية سقراط في تاريخ الفكر الأوربي ؟ نستطيع من فورنا أن نسقط وجهتي نظر مُتَشَدِّدَانِ في بعض الأحيان تجاه هذا السؤال . لأنهما عاجزان عن شرح الحقائق التي يذخر تفسيرها . فلم يكن سقراط مجرد واعظ يدعو إلى معايير أخلاقية اصطلاح عليها الناس ، وهو اتباع سلوك « الرجل الطيب » لسبب نفعي هو أن طرق الشر ، لا تُجْزَى ، وهي نظرة إلى سقراط يتخذها الذين يعطون أهمية زائدة لبعض أجزاء من كتاب « الذكريات » ، *Memorabilia* لزينون . وإلا لما كان هناك ما يبرر الحكم عليه بالإعدام لأنه خطر هام ، وما كان ليغال الحب العميق من أفلاطون ، ولا الإعجاب الشامل من كل الرجال البارزين في عهده . ولم يكن لرسم له الصور الساخرة كما رسمها له أرسطوفان . وتستطيع أن تقول إن أنيطوس لم يفهم رجله ، وإن أفلاطون قد صورته في صورة مثالية ، وإن أرسطوفان قد شوه معاملة ، وإسكن لا بد أن شيئا ما هو الذي حفز إلى سوء الفهم من ناحية ، وإلى رسم الصورة المثالية من ناحية ، وتشويه المعالم من ناحية ثالثة . لا بد أن يكون الشخص الذي تتجه إليه هذه الاتجاهات المتباينة شخصا غير هادئ على نحو من الأنحاء .

والحق أنه كان شخصية فريدة في نوعها ذات طابع تميز به . وعلينا أن نكشف في أي شيء كان يمكن تفرده وأصالته . ولم يكن سقراط كذلك على تلك الصورة التي يتخيلها السامعون من قراء أفلاطون في بعض الأحيان : مجرد رجل شكاك ، يسارع إلى تشكيك الناس في معتقداتهم بأسئلة لودعية ، من دون استناد إلى معتقدات خاصة يؤمن بها ، معتقدات يطبعها اليقين العلمي . إن مجرد المهارة في التفكيك مقدرة زائفة من حيث ما تنهى إليه من نتائج ، وإن كانت تورث الارتباك المؤقت عند الناس . أما سقراط فقد رسم الانحاء العقلي والروحي الذي عاشت عليه أوروبا منذ ذلك الحين . أما كيف حدث ذلك فهو الأمر الذي ينبغي أن نحاول تفسيره .

تبدو الإجابة في جوهرها غاية في السهولة ، وربما كان أقرب الطرق إلى العرض لها هو تلك الصورة المبسطة التي أوردتها بيرنت^(١) . كان سقراط — على نحو ما يمكن أن نقبضه — هو الذي ابتكر مفهوم « الروح » الذي ظل منذ ذلك الحين يسيطر على الفكر الأوروبي . فعلى مدى نصف وألفين من السنين ظل الفرض القائم في اعتقاد الرجل الأوروبي المتمدين أن له « روحا » ، هي الجوهر الذي يستند إليه عقله الواعي والجانب الخلقى ، وأنه ما دامت هذه « الروح » هي السكيان الإنساني نفسه ، أو هي

(١) انظر بصفة خاصة مقالة بيرنت « مفهوم سقراط عن الروح » (من أبحاث الأكاديمية البريطانية من ٢٣٥ — ٢٦٠) ومقالة بنوان « سقراط » موسوعة هاستنجز للدين وعلم الجمال ، ١١ .

على أية حال أم شيء فيه ، فإن مهمته العظمى في الحياة هي أن يسعى إلى تحقيق أسمى معانيها وأن يزودها بكل طاقة ممكنة . وهناك - ولا شك - قلة من الناس يرفضون هذه النظرية عن الحياة ، بل إن بعضا منهم لينكر وجود الروح ، ولكنهم قلة ضئيلة . ووجود الروح وأهميتها هما في نظر الأغلبية الساحقة من الأوروبيين عقيدة قريبة إلى نفوسهم إلى حد تعتبر معه بديهية . والحق أن التأثير المباشر الذي كان له أكبر الفضل في جعل هذه العقيدة قريبة إلى نفوسنا هو المسيحية ^(١) . ولكن المسيحية حين جاءت إلى العالم الإغريقي الروماني وجدت المفهوم العام للروح الذي كانت في حاجة إليه ، معداً لها من قبل على يد الفلاسفة . هذا وما يلتفت النظر أننا نجد هذا المفهوم للروح على أنها مصدر القوة الفكرية السوية والخلق ، سائدا في كتابات الجليل التالى لوفاء سقراط . فهو الموضوع المشترك بين إيسوقراط وأفلاطون وزينون ، ومن ثم لا يمكن أن يكون كشفنا خاصا لواحد منهم . ولكنه في الوقت ذاته غير موجود أصلا ، أو تكاد تخلو منه المؤلفات السابقة كلها . وعلى ذلك فلا بد أن تكون من ابتكار رجل معاصر لسقراط ، ولستنا نعلم عن وجود فكر معاصر يمكن أن تنسب إليه هذه الفكرة سوى سقراط نفسه ، الذي يلتقنا في سياق منطقتي متسق غير متناقض على النحو الذي يصوره أفلاطون وزينون في مؤلفاتهما .

(١) يتكلم المؤلف من الأوروبيين كما هو واضح من السياق المترجم

ولاشك أننا نسمع كثيرا في كتابات اليونان ابتداء من عصر
 هوميروس عن شيء اسمه « النفس » Psyche ، ولكن الأمر الهام أنه ربما
 لا توجد فقرة واحدة في المؤلفات القديمة تؤدي فيه كلمة Psyche ما ظلت
 كلمة الروح تعنيه بالنسبة إلينا قرونا هذة : وهو : الشخصية الواعية ، التي
 قد تكون حكيمة وقد تكون خرقاء ، فاضلة أو شريرة ، بحسب العناية
 والتربية اللذين تتألهما . ففي المؤلفات السابقة على سقراط كانت كلمة
 Psyche تعني على الدوام أحد أمرين ، لا يطابق أيهما ما تعلمنا أن نسميه
 بالروح soul ، وذلك حسبما يحى . استخدام اللفظة في السياق المشتق
 مما كتبه هوميروس أو من الديانة الأورفية .

فعند هوميروس نجد أن Psyche تعني حرفيا « الشبح » ghost فهي شيء
 حاضر مع الإنسان ما دام حيا ، ويتركه عند الموت . فالشبح في الواقع
 ما « يخرج » من الميت عند احتضاره . ولكنها ليست « النفس » ، فعند
 هوميروس أن « البطل ذاته » ، عيراعن « شبحه » Psyche « هو » جسده »
 وعلى الرغم من أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش حين يفارقه « شبحه »
 فإن أحدا لا يفكر في هذا الشبح Psyche على أنه ذو صلة على الإطلاق
 « بالحياة العقلية » كما ندعوها اليوم . فهذه يقوم بها في لغة هوميروس
 « القلب » Kear أو الحجاب الحاجز Phrenes ، وكلاهما عضو جسدى .
 ثم إن الشبح Phrenes الذى غادر الجسم لا شعور له على الإطلاق ،
 ولا يزيد الشعور عنده على ما يكون من الشعور لظل الإنسان أو انعكاس
 صورته على صفحة جدول . وكل ما يستطاع هذا الشبح الراحل أن يصنعه

هو أن يظلم بين الحين والحين في أحلام الأحياء . فهو بهذا الوضع ليس في حقيقته شيئاً غير «النفس» الذى يستنشق الإنسان وهو حي ، ويخرجه في النهاية حتى يذنب أجله . والعلم الايونى في وصفه للشبح Psyche يبدأ من هذه الأفكار ثم يحضى في تجريد الشبح من فرديته المشخصة إلى حد أبعد من هذا . فظرتة الغالية هى أن «شبحى» هو بكل بساطة ذلك القدر الذى استنشقته من «الهواء» المحيط بنا . و«الهواء» ذاته «آلة» ، ومن ثم فهو ينقسم بالروح . وهذا هو السبب فى أننى أعنى ما دمت أستطيع أن أعيد تزويد جهازى «بشحنات» متجددة من «الإله» ، وحين «ألفظ النفس الآخر» فإن الهواء الإلهى الذى يحتويه كيانى يختلط مرة أخرى بالرصيد العام من «الهواء» الذى ينتشر فى الدنيا على اتساعها ، ولاستند شخصيتى إلى حامل فرد له صفة الكيان الحقيقى الدائم (نعم إناك تستطيع فى فلسفة هرقليطس Heraclitus أن تجد أن «الروح» — التى افترض أنها ليست «هواء» بل «نارا» — ذات أهمية بالغة ، ولكن من التناقض البين فى هذا التفكير أن الروح تنطوى على فردية دائمة من نوع ما لى تحتفظ بكيانها عبر تقلبات الميلاد والموت والبحث من جديد ، ومع ذلك فهى فى الوقت ذاته ليست إلا قسطاً من «النار» ، الكونية انفصلت عنها انفصالاً مؤقتاً) .

أما فى الديانة الأورفية — كما هو الحال فى الديانة الفريية منها التى كان يعتمدها الفيثاغوريون القدماء — فإن كلمة Psyche تعنى شيئاً أكثر أهمية . فهى ذات كيان فردى دائم ، ومن ثم فهى خالدة ، بل هى فى الواقع

فبس من الربوبية دهرى ، وأبعد بصفة مؤقتة . وإن أم ما يعنى به الناسكون المتعبدون أن يمارسوا قواعد معينة فى حياتهم ، بعضها خلقى وبعضها تعبدى ، تؤدى فى النهاية إلى خلاص الروح ، من عجلة الميلاد وعودتها إلى مكائها بين الآلهة . ولكنها ليست هى الروح soul ، إذا كنا نعنى بالروح - على حد تعبير سقراط كما أورده أفلاطون - ذلك الشيء الذى يسكن الجسد ، الذى على أساسه يقال عنا إنا حكماء أو حمقى ، وخيرون أو شريريون ، ويفترض الأورفيون أنها لا تبدى نشاطها إلا حين يكون ما نسميه النفس ، العادية ، اليقظة متوقفة عن النشاط - فى الأحلام والرؤى وفوبات الغيبوبة . وكما يقول بندار : « إن الروح Psyche تغفو حين تصحو أعضاء الجسم ، ولكن حين ينام جسم الإنسان فإنها تنبئ فى الأحلام عما يحيق بالإنسان من مكروه أو يأتيه من خير ^(١) ، ومن ثم فإن الذكاء والشخصية الخلقية الخاصين فى لايتبعان (الروح) التى تسكن جسدى ، وخلودها - على ماله من أهمية فى فطر الأروفين - ليس فى حقيقة الأمر خلودى (أنا) وحيثاورد بصفة استثنائية ذكر للروح فى المؤلفات السابقة على سقراط ، على أنها المصدر الذى تنبع منه أية أعمال فى الحياة الراحية ، فإنها تذكر عادة مقترنة بالزوات الشهوانية التى ينفر منها الحس السليم ^(٢) . ويبدو من

(١) شذرة ١٣١ Bergk

(٢) مثلاً ذلك عندما يقول للارد (Cyclops) فى مسرحية يوريديس أنه « سيتمتع بروحه » بولية وحشية على لحوم البشر (سيكاوب ٢٤٠) . وكذلك كان الرومان يقولون genio indulgere بنفس للمو و anima causa agere فى تصرف بما عليه عليه مواه . (م٨ - سقراط)

المؤكد أنه في أثينا في القرن الخامس لم تكن كلمة Psyche توحى للرجل العادى بأكثر مما توحى كلمة (شبح ghost) إلينا . وهذا هو السبب الذى يحمل أرسطوفان فى مسرحية (السحاب) يتحدث عن سقراط وزفقائه بوصفهم φροφαι νυχια فهو يريد أن يوحى بأن حياة هؤلاء (المفكرين) لا تفضل حياة كثير من (الأشباح) وهكذا صارت كلمة φελο νυχια — أى اهتمام الإنسان بروحه — تعنى التعلق بالمبتذل (بالحياة الغالية) الذى يؤدى بالإنسان إلى الملح فى ميدان القتال .

وظاهر أن التطور صوب روحانية أخلاقية ودينية يستلزم الجمع بين العقيدة الأورفية التى تعلق أهمية جوهرية على كل ما يتصل بالروح ، وبين الفكرة القائلة بأن هذه الروح هى أئمن ما فى الكيان الإنسانى هى مصدر الذكاء والخلق فى الشخصية . وهذه بالذات هى الخطوة التى اتخذت فى نظرية سقراط الخاصة بالروح على نحو ما نجد فى تعاليمه الواردة على لسانه فى أفلاطون وزينون . وعن طريق هذا الخروج على الفلسفة الأورفية ، والإصرار على أن يقبوا سلوك الإنسان فى الحياة المسكالة الرئيسية التى كانت فى نظر المفكرين القدامى وفقا على الفلك وهلم الحياة ، هبط سقراط بالفلسفة من السماء إلى الأرض على حد التعبير المبتذل الذى استعمله شيشيرون . وبعبارة أخرى فإن ما قام به على وجه التحديد كان هو الفصل بين الفلسفة من حيث هى دراسة لها طابعها الخاص وبين العلم الطبيعى ثم التصوف فى آن واحد ، بل هى كذلك بمعزل عن أى خليط من هذين ، وأخيرا تأكيد هذا الفصل بشكل قاطع . إن

الروح - كما يتصورها - تحمل كل الامة والذاتية الدائمة التي تحملها الروح الأورفية. Psyche ويدولى واضحا - لأسباب سبق إبدائها - أننا ينبغي أن نصدق ما يقدمه لنا أفلاطون من إيمان أستاذه الوثيق بخلود الروح ، وحين يجرى هذا على لسان رجل إغريق ، فإن معناه بصفة أساسية قدسية هذه الروح في الأصل ، وهذا هو المبرر الحقيقي لقيام رسالة يبشر بها كل الناس وفي كل وقت ، خلاصتها أن الواجب للأوحد هو (رعاية الروح) و (جعلها صالحة بقدر المستطاع) مهما كان الثمن الذي يؤديه الإنسان من ماله أو جسمه ولكن المطابقة الكاملة بين الروح التي واجبنا الأول هو رعايتها ، وبين النفس العادية ، يعني دون شك أن هذه (الرعاية) لن تكون عن طريق أداء الطقوس والمراسم الخاصة بالتطهر والامتناع عن إتيان بعض الأمور ، بل تكون بتعويد النفس على التفكير الشديد والخلق السديد . ويكون واجب الإنسان أن يكون في وسعه (تقديم حساب) عما يعتقده ويعمله ، وأن يكون لديه التهرب العقلي لهذا أو ذك . أما عدم مبالاةنا واجبنا إزاء (رعاية) أرواحنا فإن ذلك بالتحديد هو أن نغضى في إصرار على ما نعتزم المضي فيه دون أن نستطيع تبريره التعبير المقول وهذا هو السبب في أن مقراطه حين قام يؤدي رسالته ، كانت مهمته الأولى أن يوجه تهمة الجمل للقوم غير المتنورين ، ويظهر لهم ضآلة ما لديهم من تهرب عقلي واع لما يعملون وما يعتقدون .

ويجب أن نلاحظ أن هذه العقيدة السقراطية عن الروح ليست داخلية في علم النفس بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة ، ولا هى داخلية في نطاق سيكولوجية الجسد (السيكوفيزيقية) ، وهى لا تقول لنا شيئاً عن (ماهية) الروح ، أكثر من أنها في ذلك الشيء الذى يسكن الجسد ، أيما كانت ماهيته ، الذى بمقتضاه ندعى حكماً أو حقاً ، (صالحين أو شريرين) وأنها لا ترى ولا تدرك بأية حاسة من الحواس . إنها ليست عقيدة تبحث في (وظائف) الروح ولا في (جرورها) . والفكرة فيها هى أن (العمل) أو (الوظيفة) التى يقوم بها هذا الجانب القدسى في تكوين الإنسان ، هى فقط أن تعرف ، وأن تدرك الأشياء كما هى في حقيقتها ، ومن ثم أن (تعرف) بصفة خاصة الخير والشر ، و (توجه) أو (تحكم) أعمال الإنسان بحيث يحيا حياة يتجنب فيها الشر ويتوصل إلى عمل الخير . ومن ثم فإن الأمر الذى يعنى سقراط لا يتصل بعلم النفس النظرى ولا علم النفس التجريبي^(١) ، وإنما هو مبدأ مشترك بين نظرية المعرفة وعلم الأخلاق .

فجمل الروح صالحة بقدر المستطاع (معناه في ناحية من النواحي إدراك حقيقة الوجود ، ومن ناحية أخرى إرساء السلوك الخلقى للإنسان على معرفة حقيقية (بالقيم الخلقية) . وفي كلا المجالين يكون الشيء الذى ينبغى

(١) علم النفس التجريبي ، والذى أسسه ألقميون الكروتوني Alcmæon of Crotonا كان يمثل على أيام سقراط أولئك العلماء الميتاغوريون الذين كلوا يعتقدون أن الروح هى عنصر الانسان الذى يسرى في نشاط الجسد ، وهى عقيدة — كما يظهر في مساورة فيدون تناقض «ديانة» فيثاغورس وسقراط .

التغلب عليه هو وضع (الرأى) و (الموى) - وهى افتراضات لا يمكن إثبات صدقها - محل المعرفة . وكما أن العلم يفسده الخلط بين الهم والحقيقة ، فكذلك الحياة العملية يفسدها التقدير الزائف للخير . وعلينا الآن أن نتبين كيف أن معرفة الحقيقة على هذه الصورة - تلك المعرفة التى تعتبر أسمى مهام الروح وبالتالي أسمى مهام الإنسان - تهض افتراضا معقولا نبتدى به نظرية العلم والأخلاق فى نفس الوقت ونستطيع أن نكون على يقين - حتى من دون توجيهات أفلاطون الصريحة - من أن اهتمام سقراط بالمشكلة العلمية يرجع إلى الفترة المبكرة من حياته ، وأن الجانب الأخلاقى من تفكيره كان العنصر الذى انفرد بالسيطرة على تفكيره فى السنوات الأخيرة التى وهبها لرسالته إلى الجنس البشرى . ولسكنا سنتناول الأمرين بترتيب عكسى ، بالنظر إلى ما اتفق عليه عامة الباحثين بشأن الخصائص المميزة لنظريات سقراط الأخلاقية .

١ - علم الأخلاق : حينما تنفتح الفرصة لأرسطو ليتحدث عن تعاليم سقراط الأخلاقية المتميزة فإنه ينسب إليه ثلاثة مبادئ خاصة ، تبدو كلها لأول وهلة على شئ من التناقض .

(١) الفضيلة - أى السمو الخلقى - هى المعرفة . ومن أجل ذلك كانت الفضائل كلها التى تميز بيننا شيئا واحدا .

(ب) الرذيلة - أى السلوك الخلقى السيئ - هى إذن الجهل فى جميع الحالات ، أى أنها الخطأ العقلى .

(ح) وعلى ذلك يكون الشر دائماً عملاً غير إرادى . ولا توجد في الواقع حالة من حالات الروح كذلك التى يسميها أرسطو الضعف الخلقى ، (acrasia) : « أن يعرف الإنسان الخير ومع ذلك يعمل الشر » ،

وواضح أن أرسطو قد استقى هذه الأقوال بصورة مباشرة من قراءته لمحاورة كبيرة مميّنة . من محاورات أفلاطون هي محاورة پروتاغورس حيث توجد جميعها . ولكنها تصف وصفاً مجملاً أصل الفكرة التى عرّص لها سقراط عن الأمور الخلقية في محاورات أفلاطون الأولى ، وهي تظهر مرة أخرى في صورة مبسطة في كتاب « الذكريات » ، Memorabilia الذى ألفه زينون . وسوف نمسك بالخيط الرئيسى في البرهان إذا استطعنا أن نكشف عن وجهة النظر التى تبطل ما فيها من تناقض وتظهرها واضحة جلية

وربما كان الأنسب أن نبدأ هذه الأقوال بما يبدو أنه أشدها تناقضاً : وهو الزعم بأن عمل الشر غير إرادى . (فالضعف الخلقى) أى قيام الناس بما يعترفون هم أنفسهم بأنه خطأ وقيامهم به دون أى إكراه ، هو من التجارب المعروفة عند الناس جميعاً ، وليس لنا أن نفترض أن سقراط يقصد إلى إنكار ذلك . ولكنه يقصد أن يقول إن هذه العبارة الدارجة التى استخدمناها منذ هتمية تقصر دون تحليل هذه الحقيقة التحليل الكافى . إن الإنسان كثيراً ما يعمل الشر على الرغم من أنه شر . ولكن لا يوجد إنسان يصنع الشر لمجرد أنه يرى أنه شر ، بنفس الصورة التى يصنع بها الإنسان الخير لمجرد أنه خير . وإنما يعتمد الإنسان مؤقتاً إلى مخادعة

نفسه بالنظر إلى الشر على أنه خير ، قبل أن يقبل القيام به . وكما عبرت
 عاورة جورجياس : إن هناك في كل منا رغبة أساسية لا تمتح : هي
 الرغبة في (الخير) أو (السعادة) . ومن الممكن في جميع الأشياء الأخرى
 أن يفضل الإنسان المظهر على الحقيقة . يفضل المظهر الخارجى للسلطان
 مثلاً أو الثروة على الشيء ذاته ، ولكن لا يمكن أن يرغب الإنسان في
 مظهر الخير أو السعادة بدلاً من الحقيقة ذاتها . تلك هي الحالة الوحيدة
 التي لا يغنى فيها المظهر عن الجوهر . والقول بأن الشر غير إرادى معناه
 إذن أنه لا يجب للشخص الشرير ما يكون قلبه — ككل قلب آخر —
 توافاً إلى الحصول عليه سواء أعرف ذلك أم لم يعرفه . والنقط الإغريقى
 (الفيضان الشر) وهو (الطاغية) الذى يتحدى كل القوانين ، قد يمضى حياته
 كلها (يعبث) بالناس ويمتلكاتهم ، ولكنه لهذا السبب ذاته — لأنه دائماً
 يصنع كما يشتهى — لا يحصل قط على ما يتوق إليه . فهو يتوق إلى
 السعادة والرضى ، ولكنه في آخر الأمر يحصد الشقاء . وتلك الروح
 تبلغ من الانهيار أقصاه ، ل وربما كان من الأفضل أن يكون مجرماً
 محكوماً عليه بالإعدام ، لأن الموت قد يكون هو (العلاج) الحاسم
 المطلوب لعلاج المرض الذى عبث بروح المجرم . وعلى ذلك فإنه إذا علم
 الإنسان علماً يقيناً لاسبيل إلى الشك فيه ، كما لاسبيل إلى الشك في وجوده
 هو ذاته ، أن ما يدعى (طبيات) الجسد والمتاع المادى لاساوى شيئاً يذكر
 إلى جانب خير الروح ، بالإضافة إلى علمه بما فيه الخير للروح ، فليس
 هناك على الإطلاق شيء يمكن أن يغريه بعمل الشر . إن عمل الشر يعتمد

دائماً على تقدير زائف للطيبات والإنسان يقدم على عمل الشر لأنه يتوقع توقعاً زائفاً أن يحصل منه على خير : يحصل على ثروة أو سلطان أو متاع . ولا يجعل ياله إلى أن إثم الروح الذى ارتكبه أثقل بكثير من هذه المكاسب المزعومة . وهكذا يتفق سقراط فى نقطة من النقط مع مذهب اللذة ، وهى أن عمل الشر ينشأ عن سوء التقدير ، ولكن سوء التقدير ليس فى (مقادير اللذة) بل فى قيم الخير^(١).

والآن يتضح لنا المقصود بقولنا إن كل الفضائل شىء واحد ، وإن ذلك الشىء هو المعرفة . واقد كانت نظرة البشرية فى وقت سقراط كما هى فى وقتنا الحاضر أن الفضائل الخلقية كثرته لا فرد — وكل واحدة منها تختلف عن الاخرى ، وأنت قد تتحلى بإحدى الفضائل بالدرجة القصوى دون أن يكون لك نصيب من فضيلة أخرى تستطيع مثلاً أن تكون (أشجع الفجعان) وتكون مع ذلك مهتكمًا بقدر ما أنت شجاع . أو تكون أكثر الناس عفة وتكون مع ذلك غاية فى البخل والظلم . وسقراط يقر بأن ذلك حق ، إذا كان ما تقصده بالفضيلة هو ما يسميه فى محاورات أفلاطون «الفضيلة الوضيعة» أى ذلك النوع من الاحترام الظاهرى للمعايير الأخلاقية اصطلاح عليها أناس دون اقتناع ذاتى بأهمية

(١) هذه النقطة الجوهرية فى البرهان الذى يوقه أفلاطون فى محاورة بروتاجوراس ، حيث يبدو سقراط لأول وهلة كأنه يقوّن بمذهب اللذة . فهو يريد أن يثبت «المكثيرين — حق من وجهة نظرهم ذاتها وهى أن الخير واللذة شىء واحد — أنه لا يوجد تناقض فى اعتبار شجاعة الرجل الفاضل والمعرفة شيئاً واحداً ، وما دام هؤلاء على استعداد للتليم بأن الجبان الذى يفر من الخطر يخطئ» تقدير «ميزان اللذات والآلام» .

الروح البالغة ، والتطابق الكامل بين السعادة الحقيقية و « صحة ، الروح ،
مكتفين بمجرد السلوك اللائق عملاً بأوضاع اجتماعية ارتضتها مجتمعاتهم ،
وأهم يتوقعون أن يقعوا في متاعب إذا سلكوا سلوكاً مغايراً . ولكن
هذه الفضيلة (الوضيعة) ليست إلا بديلاً زائفاً من الحقيقة . أما الفضيلة
الحقيقية فأمر يستند إلى عقيدة قوية ، تلك هي المعرفة الذاتية بالقيم
الخلقية الحقيقية . ومن ثم فإن هناك مبدأ واحداً هو الأساس في كل
مظاهرها المتنوعة في ملاسبات الحياة المختلفة . والإنسان الذي يدرك
هذا المبدأ ببصيرة حقيقية مردها إلى معرفة حقيقية ، لا يمكنه من ثم أن
يطبقها في بعض الحالات دون الأخرى . فالمعرفة الحقيقية بما هو خير
للروح لا بد أن تظهر في موقف موحد تجاه كل ملاسبات الحياة ، ومن ثم
تحتل في حياة (الفيلسوف) تلك الخطوط الظاهرية التي تفصل لونها من
الخلق السامى عن لون آخر وإنما تكون أخلاقه في مجموعها تعبيراً عن
سمو واحد ، ومعرفة واثقة (بميزان الخير) الحقيقي . وهذا يفسر لنا
حقيقة عجيبة : هي أن أكثر من واحدة من محاورات أفلاطون تلتجى
بنتيجة واحدة سلبية في الظاهر . وعلينا أن نتدبر الطابع الحقيقي لبعض
الصفات التي يجرى العرف على اعتبارها فضائل (ضبط النفس في محاوره
خرميدس والشجاعة في محاوره لآخس) ويبدو أن التفكير سينتهى بنا
إلى نتيجة مؤداها أن الصفة التي نبحث أمرها هي في الحقيقة (معرفة)
الخير ، حتى تبين في السياق أن هذا التعريف ليس خاصاً بالفضيلة
المفردة التي نبحثها في ظاهر الأمر ، بل بكل الفضائل باعتبارها كلا

واحدا . ومن الوجهة العقلية يعرض هذا البرهان كدليل على أننا نزال نجعل إجابة السؤال المطروح علينا كما كنا نجعله عند بداية البحث . ولكن سنفهم — على هذا الأساس — أن محاولة تعريف فضيلة مفردة أمر ينتهى بنا إلى شيء لا يمكن اعتباره تعريفاً لتلك الفضيلة المعينة أكثر مما هو تعريف لغيرها من الفضائل ، لأن الفضائل كلها تستند إلى أصل واحد من حيث المبدأ .

وما من شك في أن المعرفة ، التي يرى سقراط أنها هي الفضيلة على هذه الصورة ليست أى شيء . وكل شيء يمكن أن يطلق عليه اسم المعرفة ، بل هي المعرفة بما يسمى في هذه الأيام « القيمة الخلقية » : أى المعرفة بما فيه الخير لنفسى . ولكن هذا يؤدى إلى صعوبة حقيقية : إذ كيف يمكن الوصول إلى هذا النوع من المعرفة ؟ فإذا كانت الفضيلة من ناحية هي المعرفة ، فإن حيازتها أو عدم حيازتها ليست من نوع الطبيعة المتوارثة التي تأتي دون جهد . فالناس لا يأتون إلى هذا العالم مشتملين على الفضيلة أكثر مما يأتون إليه وفي حوزتهم أى نوع آخر من المعرفة . وإنما عليهم أن « يكتسبوا » المعرفة اكتساباً . ومع ذلك فإن الفكرة السائدة على نطاق واسع بين الناس ، والقائلة بأننا نلتقط « الصلاح ، آلياً كما نلتقط اللغة التي نتكلمها ، تحت تأثير الآبوين الصالحين والبيئة الاجتماعية الصالحة . . هذه الفكرة لا يمكن أن تكون صحيحة . فمن المؤكد أن بركليز وغيره من البارزين الذين يعتبرهم الشعب الإنسى « أفضل رجاله » بلا منازع عجزوا عن أن يورثوا ذريتهم ما امتازوا هم به من مثل أخلاقية ،

ومن ثم كان الأبناء على درجة من الانهيار الخلقى . ومن ناحية أخرى فإن السوفسطائيين البارزين يعلنون أن في استطاعتهم أن يعلموا الصلاح ، كما يمكن أن يعلموا أية أساليب فنية عن طريق التعليم وفق منهاج معين . فإذا كانت الفضيلة هي المعرفة ، ولا شيء غير المعرفة ، فمن المؤكد إذن أن تكون فائدة التعليم على نحو ما . فالشخص الذى يملك هذه المعرفة ينبغي أن يكون قادراً على توجيه الآخرين لاكتسابها . ومع ذلك فإن دعوى المعلمين بأن في مقدورهم أن يعلموها للناس بسلسلة من المحاضرات لا بد أن تكون دعوى فارغة . والنقطة التى تصور محاورات أفلاطون سقراط وهو يرددها معارضاً بها المعلمين والمذبحين بهم ، نقطة بسيطة . إذ الذى يستطيع السوفسطائى أن يعمل لا يعدو أن يكون ميزة معينة ذات طابع خاص : هو كيفية القيام بعمل لا يستطيع عامة الناس أن يعملوه . أما الفضيلة أو الصلاح فليست تخصصاً محدود النطاق . وإنما نطاقها هو السلوك البشرى بأكمله . ثم إن التخصص أمر يمكن أن يستخدم فى طريق الخير كما يمكن أن يستخدم فى طريق الشر . مثال ذلك المعرفة بالطب التى يمكن أن تستخدم فى علاج الأمراض ، كما يمكن استخدامها للقتل . ^(١) وأقصى ما يمكن أن ينصح فيه السوفسطائى هو تالقين فن تخصص فيه . ولكن الذى لا يستطيع أن يمنحه هو (معرفة الخير) التى تضمن أن استخدام تلك المعرفة سيكون على وجه التأكيد فى سبيل الخير لا فى سبيل الشر .

(١) من المعلوم أن أمهر الجرمين فى قضايا الليل بالنسبة هم عادة من رجال الطب .

كيف إذن يتعلم الإنسان ذلك النوع الوحيد من المعرفة الذى ينفعه إلى أقصى حد أن يحصل عليه — معرفة الخير . ليس من الواضح أن سقراط قد وصل قط إلى حل حاسم لهذه المشكلة . ولكننا قد نستطيع أن تبين الطابع العام للإجابة التى كان يمكن أن يعطيها . فطبقاً لما يقوله أفلاطون^(١) قد الفت نظر سقراط فى الديانة الأورفية أن هناك وسائل يمكن بها إعادة الروح إلى تذكر أصلها الإلهى الذى نسيته ، وأنه من هذه الإشارة وصل إلى الاعتقاد بأن كسب المعرفة هو فى الحقيقة عملية (تذكر) أو *Anamnesis* ، تكون فيها بعض الوقائع الحسية الجسدية باعثة أو موحية بضرورة وجود مبدأ كلى يفوق الوقائع ذاتها . إن العالم الرياضى يستطيع برسم شكل هندسى وتوجيه سلسلة من الأسئلة التى تتعلق

(٢) انظر بصفة خاصة الذكريات ١٨١ — ٨٥ هـ ، حيث تشرح النظرية شرحاً محكماً « بدرس » فى الهندسة يعطيه سقراط لعبى من الأرقاء جاهل فى العلم ، و « فيدون » ٧٢ هـ وما بعدها حيث ترد إشارة مماثلة إلى اكتساب المعرفة الهندسية . وفى كلا الموضوعين تعمد الصلة بين المذهب وبين خلود الروح ، ولكن يبين بوضوح أنها — وهى نظرية خاصة بالكسوف عن حقيقة من الحقائق — مستقلة عن هذا المعتقد الدينى (وهى تظهر فى الواقع فى نهاية كتاب أرسطو « التعليقات الثمانية » ؛ *Posterior analytics* ٢ « دوت أى ارتباط ، بالدين ، بوصفها شرح أرسطو نفسه للطريقة التى يمكن أن تصل منها إلى أسس « الاستقراء » . وفى « فيدون » (فى نفس الموضوع) يرد المذهب القائل بأن العلم هو مجرد المعرفة على لسان سيمياس وهو يتحدث إلى سقراط قائلاً عنه فى وضوح إنه « المذهب الذى لا يفتأ تكرره » . وما لم يكن فى نيتنا أن نعبر بمحاورة فيدون تعمية ضخمة لا تنفرد أن هذا يبدو لى برهانا كافياً على أن النظرية ترجع حقاً لسقراط . من أجل الحصول على صورة واضحة موجزة لمعتقدات أفلاطون انظر الرسائل ، ٧ — ٣٤١ هـ وتعليقات بيرنت على هذه الفقرة فى كتابه « الفلسفة الإغريقية » ، ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

بالموضوع أن يوجه الطالب إلى التعرف على قضيته كلية . ولن يحتاج إلى أن يعطى أية معلومات . ذلك أنه إذا رسم الشكل الهندسى الصحيح وأطلق ذهن الطالب إلى التفكير فيه بتوجيه الأسئلة الصحيحة فإن الذهن سيصل إلى النتيجة الصحيحة نتيجة لتفكير تلقائى أو استدلال عقلى بحسب ، كما لو كان يستمد المعرفة من مستودع كامن فيه يملكه بالفعل على غير وعى منه . والحقيقة التى (يتعلمها) الإنسان على هذا النحو ، يتوصل إليها (باكتشاف) شخصى لم يرد (المعلم) على أن نبه إليها . ومع ذلك فهو (يتعرف) عليها كأنها متضمنة فيما كان (المتعلم) يعرفه طيلة عملية الإيماء هذه . وبنفس الطريقة فإن الأسئلة الحاذقة التى يوجهها رجل مثل سقراط يضطرنا إلى (تقديم حساب) عن الطريقة التى توجه بها حياتنا ، تستثير عقل الشخص الذى توجه إليه الأسئلة ليصبح على بينة بما يستتبع القيم الخلقية التى تتحكم بها فى سلوكنا وسلوك سوانا . وقد كانت هذه هى نقطة البدء التى استلزم منها أفلاطون إلى تفصيل أو تطوير نظريته الخاصة فى (الفلسفة) التى جاءت ثمرة احتكاك العقول التى دأبت فى السعى وراء الحقيقة .

لقد كان العقل الإغريق على حق فيما ذهب إليه من عدم التفرقة بين مبادئ السلوك الشخصى ومبادئ السلوك العام ، أى لا يفرق بين الأخلاق و (السياسة) . وسقراط الذى آمن بأن (الخير) هو التقدير السليم للقيم استطاع فى غير تناقض تطبيق عقيدته هذه على أخلاقيات الدولة وساستها . فقيمة الدولة ورجالها تعتمد فى نظره اعتماداً كلياً

على مدى اعتماد الحياة القومية على مسلم صحيح للخير . وقد كان أمراً خارجاً من حسابه — رغم شدة إخلاصه للدستور — أنه كان لزاماً عليه أن يؤيد الديمقراطية من حيث المبدأ ، وبدأ إعطاء الساطة للجمهور الذى لا معرفة له بالخير ، بل الذى لم يعلم قط أن مثل هذه المعرفة مؤهل ضرورى لسياسة أموره . والأحكام التى تجرى على لسانه فى محاورق أفلاطون : جورجياس والجمهوريّة ، عن الديمقراطية الإغريقية ، أقسى بكثير من كل ما قاله أفلاطون بلسانه الخاص عن الحكومة الديمقراطية فى المحاورات الأخيرة من أمثال السياسة و (القوانين) . ويددولى أنه من المحتمل أن تكون القسوة فى هذه الأحكام صادرة عن سقراط أكثر مما هى صادرة عن أفلاطون (١) . إن المبدأ الرئيسى فى الديمقراطية

(١) حين تؤخذ لغة المحاورات الأولى على أنها معبرة عن أفكار أفلاطون الخاصة ، فإن الأحكام الأقل منها عنفاً التى ترد فى المحاورات اللاحقة ، تفسر بأنها ناشئة عن الأثر اللطيف الذى أحدثه الزمن فى عقل كان مصرع سقراط قد هاجمه وشنت أفكاره . وقد يكون الأمر كذلك . ولكن يوجد دائماً احتمال يستند إلى أسس سيكولوجية بأن الأحكام الأعنف هى أحكام سقراط نفسه ، فإن خيبة الأمل التى أصابته حين ازدادت الديمقراطية الأثينية تضيقاً وعنفاً خلال الحرب الكبرى ، يزيد من مزارتها أنه عاش فى «الحسن السنة الضيقة» التى سبقت الحرب ، ولا بد أنه كان يتوقع أموراً تختلف أشد الاختلاف عما حدث بالفعل . وفى إحدى المحاورات المتأخرة جداً وهى محاوره «طباوس» يرسل أفلاطون على لسان سقراط اعترافاً بأنه أقرب إلى أن يكون رجلاً نظرياً فى السياسة بسبب عدم خبرته الشخصية فى شئون الحياة العامة (طباوس ١٩ د) ولعلم من زينون (ذكريات ، ١ : ٢٤٩) أن السخرية التى وجهها إلى الإجراء الديمقراطي الذى ينضى بمل مناصب المحكام (magistrates) عن طريق كان القرعة كانت من بين الأسس «الحثيثات» التى أقيمت عليها الدعوى ضد سقراط ، والتى زينون يدافع عنها فى كتابه .

— إذا أمكن أن نسميه مبدأ — هو بحسب ما جاء في الجمهورية ، أنها ترفض أن تتطلب أى امتياز عقل أو خلق بوصفه مؤهلاً للزعامة . ففي الجماعة الديمقراطية — كما يقول نيتشه — « يوجد قطع واحد ولا يوجد راع ، وهذا هو السبب في أن مصيرها الطبيعي أن تقع في يد حاكم مستبد (دكتاتور) قدير ولكن لا ضمير له (أو في يد طاغية كما كان الإغريق يدعونه) ولا يقل عن ذلك قسوة ذلك الحكم الذى يرد في محاولة جورجياس على كل زعماء الديمقراطية الاثينية المشهورين من تيمستوكليس Themistocles إلى بركليس ، باستثناء واحد محدود الأفق ، هو « أرسيتيس » . فلم يكن واحد منهم حائزاً على معرفة الخير التى هى الشيء الوحيد المطلوب في الحياة ، كما يبدو ذلك من اعتبارين اثنين . أولهما أن أحداً منهم لم يستطع — ولا أرسيتيس نفسه — أن يمنح أية فضيلة من الفضائل التى تحلّى هو بها إلى ولده . والثاني أن أحداً منهم — باستثناء أرسيتيس — لم يستطع إذكاء الروح الخيرة في عامة الشعب بوصفه الراعى المسئول . إن تيمستوكليس وبركليس وغيرهما قد جعلوا أثينا أقوى وأغنى ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من أجل (أخلاق) الشعب . لقد (ملثوا) المدينة بالسفن والمرافىء لا بالصالح أو التقوى . أعطوها ثراء دنيوا ولكنهم لم يعطوها مثلاً أخلاقية حقيقية . ومن ثم تقول لنا محاولة جورجياس إنهم على الرغم من كونهم (خداما) أكفاء للشعب ، فإنه لا يحق لهم أن يزعموا أنهم كانوا — كما يذهب للساسة الحقيقيين — (أطباء) ذلك الشعب . ومن الواضح أنه كان من عادة سقراط في حقيقة الأمر

أن يستخدم ذلك النوع من البرهان الذى ينسبه إليه أفلاطون بشأن عجز رجال الحكم الأثينيين عن منح (الصلاح) لأبنائهم ، واتخاذ ذلك دليلاً على أن (صلاحهم) الظاهرى لم يكن شيئاً حقيقياً . وفى محاوره (مينون Meno) يصور أئيتوس بأنه يحذر سقراط تحذير أقربا من أن هذا البنفس من قيمة الأبطال الوطنيين لعبة خطيرة ، وتلك إشارة صريحة إلى اعتقاد أفلاطون أنه قد كان لهذا الأمر صلة وثيقة بإثارة الحملة التى أدت إلى محاكمته .

والتنظيم الصحيح للمجتمع من وجهة نظر سقراط هو الذى يكون فيه الوضع الاجتماعى لكل إنسان والوظيفة التى يؤدىها - رجل سياسة كان أو جندياً أو منتجاً - محكومة - ينسبط طبيعة العمل الذى تؤهله له استعداداته وإدراكه وخلقه ، وهذا على وجه التحديد هو المثل الأعلى الذى يتضمنه فى صورة بجملة وصف المدينة الفاضلة الذى يملأ الأجواء الأولى من جمهورية أفلاطون . وإلى هنا يمكن أن يقال إن الفكرة من إعطاء سقراط المباشر . أما إلى أى مدى يرجع أى من تفصيلاتها بالفعل إلى تفكير سقراط ، فمسألة أخرى ، وإن كان هناك ما يوحى بأن الأمر كذلك بالنسبة لفكرة من الأفكار الجوهرية فيها ، وهى الاقتراح الخاص بقبول النساء على قدم المساواة مع الرجال فى الوظائف العامة من مدنية وعسكرية ، وإعطائهن التعليم الذى يؤهلهن لذلك . والذى يوحى بأن سقراط قد اعتنق مبدأً مثالياً من هذا النوع هو أن أسكينس كذلك فى محاورته المسماة أسبازيا Aspasia قد أسهب فى الحديث عن المقدرة

السياسة لأسبازيا ذاتها وأخريات غيرها، وعن المهارة الحربية التي كان
يظن أن الأميرة الفارسية الحقيقية أو الخرافية زودوجين Rhodogyne
قد أبدتها. كما أن زينون على لسان سقراط يدافع عن فكرة أن المرأة
إذا نالت التدريب اللازم صارت قادرة على نفس ما يقبدر عليه
الرجل (١).

٢ - نظرية المعرفة ومنهاج البحث العلمى: يشير أرسطو فى كتابه "الميتافيزيقيا"، إلى أننا "ينبغى حقاً أن ننسب إلى سقراط أمرين: براهين الاستقراء والتعريفات العامة"،^(٢) وهذا لا يؤدى بنا إلى كثير.. فن الواضح أن الذى يقصد إليه أرسطو لم يكن تصوير فلسفة سقراط. تصويراً كاملاً بقدر ما كان تخصيص بعض العناصر المسكونة.

(١) انظر المقتطفات الموجودة من « أسبازيا » في طبقي كراوس وديتمار Krauss & Dittmar وشهادة زينون على اعتقاد سقراط بأن المرأة ليست أسوأ في استمدادها الفطري من الرجل بالطبيعة « وجود في كتاب المادية » ٩٢، ولذا أردت برهاناً من كلام زينون على أن المعرفة هي المطلب الوحيد الذي يؤهل للسيادة فالنظر . ذكريات ٩٤ ٩٥ ١٠ ، وقارن هذا بكل ما جاء في الجزء ٣ — ٦ حيث يثبت سقراط جلوكون Glaucon عن دخول الحياة العامة قبل الألوان بفضح جهله بالإحصاءات الحربية والمالية . أما حديث زينون عن هذا النوع من الجهل وجده دون ما هو أخطر منه وهو الجهل بالقيم الخلقية فانه يدولى طامعاً مبرماً للرجل نفسه .

(٢) انظر ميثاق إفريقيا ١٠٧٨ ب ٢٧ وبقيض بعض الباحثين المحيدين من الألمان المحيدين في إنسكلارم أن سقراط قد اهتم « بالتعريف ». وهذا صحيح بمعنى أن اهتمامه لم يكن موجهاً للمدخلات النظرية من أجل ذاتها ، وإنما إلى القواعد العملية للسلوك . ولكن الأمر القوي يبرر طريقة أرسطو في التعبير عن رأيه ، لأنه يفكر في التركيب الصوري لبعض المؤلفات من أمثال خرميدس ولاخس ورتاجوراس ومينون والجمهورية ٤ .

لفلسفته هو الخاصة وإرجاعها إلى سقراط ، ويبدو أنه قد بنى تقريره ذلك على مجرد قرأته لمحاورات أفلاطون ، التي توضح هذه النقطة توضيحاً وافياً . أما زينون فإن اهتمامه بالدفاع عن سداد الدروس الخلقية التي كان يعطيها أستاذه القديم ، لم يترك له رغبة كبيرة في أى شيء آخر . والفرص المبسوطة أمامنا لذلك لتكشف مزيداً من المعلومات عن سقراط بوصفه مفكراً تتناول موضوعات أخرى غير الموضوعات الخلقية الخاصة ، مرتبطة ارتباطاً كاملاً بمدى ما في الفحص الذي يجزئ على لسانه في محاوره فيدون الأفلاطونية^(١) ويروى فيه وقائع حياته ، من صدق تاريخي ، وإنه لبيدولي ، كما قلت من قبل ، أننا ملزمون بأخذ هذا القصص على أنه عين ما يعتقد أفلاطون أنه حقيقة تاريخية . وإلا فالبديل من ذلك أن نفترض أن بياناً بما قاله سقراط عن نفسه في آخر يوم من أيام حياته ، في حضرة عدد من أصدقائه المقربين كانوا كلهم على قيد الحياة عند نشر هذا البيان ومن المؤكد أن يقرءوه . . يمكن أن يكون قصة مخترعة ، لا شك أن كل أولئك القراء كانوا سيكشفون زيفها على الفور . وليس هناك في الواقع من يملك الشجاعة للنسيان وراء هذه النظرية . فالجميع مثلاً يتقبلون قصة تقديم سقراط لكتاب أنكساغورس وخيبة أمله فيه ، على أنها حقيقة ، مع أننا لا نملك دليلاً عليها إلا المقالة الواردة فيدون ، ولكن هذا البيان الوارد

(١) فيدون ١٩٦ — ١٠٠ ينبغي دراسة الفقرة كلها دراسة دقيقة مع التعليقات الواردة عليها في طبعة بيرنت لهذه المحاوره (أكسفورد سنة ١٩١١) .

في «فيدون»، ليس إلا بداية قصة متأسفة، فلزم حينئذ — انكون منطقيين مع أنفسنا — إما أن نتقبل بقية القصة على أنها حقيقية ودقيقة التفاصيل، وإما أن ننظر إلى الجملة الأولى بنفس نظرة الشك التي نرى بها ما تلاها. أما عن نفسى فليس لدى كبير شك في أى الطريقين أقرب إلى التفكير السليم. ولن ينكر عاقل بالطبع أن أفلاطون — ككل فتان عظيم — قد مزج فكره الخاص بالموضوع الذي يتناوله. ولكنه أمر مختلف تمام الاختلاف أن نزعّم أنه على وجه منه يقدم لنا ملاحظه هو في صورة مزعومة لسقراط^(١).

وإذن فطبقاً لما جاء في محاوره فيدون، كان الأثر المباشر في نفس سقراط من اكتشافه أن أنكساغورس يصدر أحكاماً قطعية عن الطبيعة بنفس الطريقة التعسفية التي يتبعها معارضوه، هو أن يقوده ذلك إلى ابتداء طريقة جديدة في البحث عن الحقيقة. فإذا كنا لا نستطيع أن نكشف عن حقيقة الأشياء بالفحص المباشر للأشياء ذاتها، فإننا نستطيع أن نصل إليها باختبار «القضايا»، أو «النظريات» (logoi) التي نصوغها عن هذه الأشياء، ولأن هذا المنهج من قبيل التحايل بصورة واضحة فإن سقراط قد غص من شأنه بوصفه حيلة يلجأ إليها رجل هاون. أما الحقيقة بطبيعة الحال فهي أنه يعتقد أن منهاجه يمنحنا الفرصة الوحيدة

(١) إن الرسام العظيم الذي يرسم لوحات الأشخاص يضع شخصيته دائماً في لوحاته. ولو كان قسماً أدنى رتبة في فنه لاختلقت اللوحة. ولكنه لا يضع ملاحظه الخاصة في صور الذين يرسمهم.

للوصول إلى أية معرفة حقيقية . والمنهاج الذى يصفه هو على وجه التحديد ما سماه « الطريقة الجدلية » — كما نرى فى زينون^(١) وأفلاطون كذلك — وهو اسم ربما كان القصد الصحيح منه هو أسلوب « الحوار » والفكرة التى تشرح استخدام هذا الاسم هى أن الحقيقة ينبغى أن يتوصل إليها بمقارعة الحجج فى محاوراة أو مناظرة يمكن أن تقوم بين اثنين يسأل كل منهما الآخر ويستجوبه ، أو فى قلب رجل واحد كذلك ، حيث تسأله « روحه » ، ثم تجيب عن الأسئلة نفسها . والحقيقة التى لا يمكن الكشف عنها بالفحص المباشر للحقائق قد تنكشف عن طريق تفسيرات متناقضة لهذه الحقائق تقاس بمقياس النقد وهى تأتى — حين تأتى — كخاتمة لمناظرة .

وقرع الدليل بالدليل أو النظرية على هذه الصورة هى الأسلوب الذى يمسخه أرسطوفان مسخا بلغ حد الإسراف والحبث فى مسرحية « السحاب » . وكان بروتاجوراس أيضا قد قال فى معنى يختلف اختلافا بينا عن هذا إن كل شيء يتعرض لنوعين من التدليل ، أى أن كل قضية ذات فاحيتين ، وأن أسلوب الدفاع المشر وهو الفن الذى كان يقوم بتعليمه ، يهدف إلى أن يجعل « أضعف القضيتين » ، تلك التى لو عرضت بغير مهارة لنالت إعراض المستمعين ، « أقواما حجة » . أما أرسطوفان فإنه يعنى على هذا القول الساذج معنى آخر ، هو أن هدف الدفاع أن

(١) فى كتاب ذكريات عرض مفصل بعض الشيء لشرح الطريقة التى جعل بها سقراط أولئك الملتفين حوله « أكثر استعدادا للجدل » وكانت طريقته لى هذا — فيما يروى عنه زينون — أن يحتملهم على التفكير المحدد والتبديد عن أفكارهم بطريقة واضحة .

يضفى على قضية خامسة من الناحية الخلقية ما يجعلها فى صورة أقوى قياسا إلى أخرى ، حتى إذا ما طبق أسلوب الجدل هذا على منهاج سقراط جعل القضيةتين تملآن على المسرح بالقضية والردية ، وبطبيعة الحال تطرد القضية الرديئة من الميدان . وهذا لا يعدو أن يكون من نوع المسخ المسرف للواقع ، ولكنه يفترض أن سقراط فى أثناء طفولة أفلاطون كان ممر وفاعته أنه معنى عناية خاصة بمقارعة الحجج من نوع ما .

وتعطينا محاورة فيدون بيانا وافيا إلى حد كبير عن طبيعة النقاش الذى يتهج هذا المنهج ، ومؤداه أن يبدأ سقراط من قضية منطقية هو مقتنع بصحتها استنادا إلى أية أسس افتراضية وهذه يسميها « الفرض المبدئى » . ثم يعضى فيسأل نفسه : « أى شئ ينبئ أن يقترب على ذلك الفرض إذا سلمنا بصحته ؟ ، أى أنه يستتبع ما يقترب عليه من نتائج . وما دام الفرض المبدئى مسلما به على هذا الوضع فكل ما ترتب عليه صادق وكل ما يتعارض معه فهو كاذب . ومن ثم فإن الفرض الذى يستند إليه هذا المنهج هو أن الصدق نظرية متسامكة الحلقات وأن كل ما يتعارض مع مبدأ صادق لا يمكن أن يكون صحيحا . وينبئ أن نلاحظ بطبيعة الحال أن المبدأ المفترض الذى يسميه سقراط « الفرض » ، لا يؤخذ على أنه مجرد افتراض بحت ، وإنما يأخذه سقراط على أنه نقطة البداية فى التلليل لأنه يفترض أنه صادق أو لأنه أساس قد افترض صدقه هو والطرف الآخر فى النقاش . ومن جهة أخرى لا ينصرف هذا النقاش إلى تأكيد المبدأ على أنه قضية بديهية صادقة لا معقب عليها فقد وضع

موضع المناقشة . وعندئذ يحتاج الأمر إلى الدفاع عنه دفاعاً يأتي عن طريق الاستدلال عليه قياساً إلى « فرض ، آخر أ كثر ، قطعية ، وأقل تعرضاً للشك . والقاعدة الهامة في الطريقة هي الفصل بين السؤلين : السؤال الخاص بأى النتائج التى تترتب على «الفرض» ، والسؤال الخاص «بالفرض» ، ذاته وهل يصدق وما دمنا بصدد السؤال الأول الخاص بالنتائج ، فإن «الفرض» ذاته ينبغى ألا يكون موضع نقاش .

وإلى هنا يتضح أن منهج سقراط على الصورة التى تبدو فى محاوره فيدون هو المنهج الذى أثبت صدقه من حيث المبدأ باعتباره الطريق الوحيد إلى الصدق فى النظريات العلمية حتى وقتنا هذا والمقارنة التى تقام بين أسلوب البحث المباشر الذى كان يتبعها علماء الطبيعة الإيونيون والى لم تؤد إلى شئ ، وبين أسلوب آخر يذهب إلى دراسة الموجودات المادية استناداً إلى «النظريات» التى تصوغها تفسيراً لهذه الأشياء ، هى ذاتها التى يقيمها دى مورجان De Morgan كذلك بين طريقة بيبكون الخاطئة ، التى يزعم فيها أن الموجودات المادية «وجودية لاستقبات نظرية منها» وطريقة بونن الحائية التى تذهب إلى أن حقائق السكون لمادية قائمة لتقيس بها صدق النظرية^(١) . وأبرز الفوارق بين أسلوبى البحث أن سقراط لا يشير إشارة خاصة إلى التأكد من صدق النظرية عن طريق قياس نتائجها الصورية بمقياس الواقع المادى الملاحظ ومع ذلك فإن التكيف

(١) ا. دى مورجان — حصيلة من المناقشات (الطبعة الثانية) ١ ، ٨٨ .

المنطقي الدقيق لهذا التأكد من صدق النظرية يأتي في تفضيل أفلاطون ومدرسته لتفكير سقراط ، حتى لقد اصطلح على تسمية النظرية العلمية التي تفسر كل الحقائق المادية التي نشاهدها وما يتصل بها من ظواهر بقولهم « افتراض على يفسر الظواهر » . (و ه الظواهر ، هي الوقائع كما تسجلها المشاهدة ، و « التفسير » ، يقصد به تبيان الأسباب التي تربط هذه الظواهر كلها في سياق محكم) . ولم يكن في وسع سقراط ولا أفلاطون بطبيعة الحال التفكير في التثبت من صدق النظريات عن طريق التجارب العلمية التي يعتمد إليها العلم حديثا على نطاق واسع تأكيداً لهذا الغرض السالف .

وإلى هنا نجد شاهداً مستقلاً على أن التفصيل الوارد في محاوره فيدون عن منهج سقراط هو شاهد تاريخي وقد كان زينون يدرك أن الأسلوب الذي يتبعه حين ينازعه أحد في قضية من قضاياها هو الربط المنطقي بين « الفرض » وبين ما يتبعه من خطوات أي إلى المقدمة الأولى التي كان متفقاً عليها مع معارضة (١) ، وإن كان هذا بطبيعة الحال قد يعني فقط أن زينون قد قرأ محاوره فيدون ، ولم يجد سبباً لعدم الثقة فيما تحتويه من عبارات . وأكثر من ذلك دلالة في نظري أن أفلاطون نفسه يجعل بروتاجوراس يشير بمجرد إشارة — دون مزيد من الشرح — إلى الطريقة التي قوامها أخذ قضية معينة على أنها « فرض » ، لا تناقض صحتها ما دنا معينين بالكشف عن نتائجها ، على اعتبار أنها طريقة خاصة يتميز بها

(١) ذكريات ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

سقراط ، في محاولة يتظاهر بأنها وقعت قبل مولد سقراط^(١). ونستطيع أن نرى بالإضافة إلى ذلك من أى مصدر يمكن أن سقراط قد استوحى طريقته . فقد كان استنباط النتائج استنباطا منطقيا دقيقا من «فرض ما» ، هو الطريقة الخاصة التى يلجأ إليها زينون الإيلي الشهير ، وإن كانت «فروض» معارضية هى التى كان يعالجها على هذا النحو ، وكان غرضه أن يعيها بإظهار أنها تؤدي إلى نتائج مستحيلة ، كما صور أفلاطون في محاولة بارمينيدس^(٢) يشرح طريقته هذه لسقراط الشاب .

إلى هنا يحتمل أن نجد كثيراً من الدارسين المدققين لهذا الشاهد — إن لم يكن معظمهم — على استعداد لتأبعتنا . ولكن معظمهم قد يرفض أن يخطو الخطوة التالية فيقبل ما نقوله القصة الواردة في محاولة فيدون عن طبيعة «الفرض» المعين الذى اتخذ سقراط لنفسه أساسا لتفكيره . على أنه في أساسه صادق صدقا تاريخيا . فهذا الفرض فيما يقال ليس شيئا آخر غير «نظرية المثل» الشهيرة ، والدعوى قائمة بلا برهان — أو بغير برهان سوى بضع عبارات غامضة في كتابات أرسطو — بأن هذه النظرية قد استكشفتها أفلاطون للمرة الأولى بعد وفاة سقراط . أما عن نفسى ، فإننى أرى مع يورنت أنه من غير المستساغ عقلا أن يقدم

(١) بروتاغوراس ٣٥١ هـ ولايستخدم هنا لفظ (الفرض) ولكن بروتاغوراس يقترح على سقراط أن يباشر القضية القائلة بأن الخير هو اللذة «وفقا لأسلوب بحثك المعتاد» باستنتاج النتائج المرغوبة عليها .

(٢) بارمينيدس ، ١٢٨ ب — هـ .

أى مفكر إلى العالم كشفا خاصا به ، أصيلا بصفة بارزة ، بأن يصوره على أنه كان معروفا من مدة طويلة لعدد من المعاصرين الأحياء ، الذين كان من المؤكد أن يقرءوا كتابه ويكشفوا أى تصوير بجانب الحقيقة فيه . ومن ثم فإننا أرى أننا يجب أن نأخذ العبارات الواردة في محاوره فيدون على أنها مؤكدة الصدق ، وعليها أن تفسر الشاهد المستمد من أرسطو — إذا قبلناه أصلا على أنه شيء أكثر من تخمين ختمته لنفسه — بطريقة لا تتعارض مع أفلاطون . ويدعى أن تذكر بطبيعة الحال أن أفلاطون قد مزج شخصيته بموضوعه في أثناء عملية الكتابة ذاتها ، ولكن علينا أن نأخذ ذلك على أنه مسألة لا يحصى عنها ، ولم يكن عن قصد واع لتشويه الحقيقة

وقد كانت المشكلة التي حيرت سقراط هي (سبب الحدوث والعدم) . لماذا يظهر شيء ما في هذا العالم ولماذا يختفى منه ، لماذا تظهر لشيء ما صفة لم تكن فيه من قبل أو يفقد صفة كانت فيه ، إن علماء الطبيعة لديهم ما يجيبون به عن هذا السؤال ، فقد وجدوا أسباب هذه التغيرات في العوامل الطبيعية التي حددها بطريقة تمسقية واختلفوا في تحديد ما وقد كان من أمر التفكير في القضية التي عرضها أنكساغورس عن (العقل) بوصفه مصدر النظام في هذا العالم ، أن أوحى لسقراط أن هذه العوامل الطبيعية — أيا كانت ما هيها — لا تزيد في أحسن أوضاعها على أن تكون أسبابا ملازمة ، أو صفات لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للحدث . أما السبب الحقيقي في كل حالة فهو أنه من « الأفضل » أن تكون الأشياء في وضعها

الذى هى عليه ؛ وفى العالم الذى يقوم العقل بتنظيمه يسكون كل شىء موضوعا فى أفضل وضع يذيق أن يكون عليه . وبهذه الطريقة أدخل سقراط فى الفلسفة الفكرة «الغنية» أو «النهائية» لنظام السكون بوصفه محققا لغاية ذات قيمة مطلقة ، هى التى عمل أفلاطون وأرسطو وأهل وطن على توضيحها وإبرارها ، ونقلها إلى العصور التالية بوصفها تراث التفكير الفلسفى الإغريق

وقد كان ترك أسلوب البحث القديم الساذج الذى يحاول الكشف عن الحقيقة بالفحص البسيط لحقائق السكون المادى معناه ، بطبيعة الحال أن سقراط لم يكن يستطيع أن يحلم بأن يعرف عن طريق الفحص المباشر ما هى التفاصيل الدقيقة لنظام العالم ، وما هو السبب فى أنه من الأفضل أن تكون ما هى عليه . ولكن افتناعه بأن كل شىء يخضع لنظام يدركه العقل ، وأنه نظام حكيم ، أعطاه وجهة نظر محددة يعالج منها المشكلة المتعلقة بسبب عجز الموجودات المادية إلى هذا الوجود وانعدامها ، ولماذا يكتسب الموجود المادى خاصة معينة أو يفقدها . وهو يتحدث عن وجهة النظر هذه فى محاوره فيدون على أنها ليست أمرأ جديداً على مستمعيه ، بل هى شىء سمعوه منه مراراً . فإذا أصبح شىء ما غير ما كان عليه ، إذا أصبح جميلاً مثلاً ، فرد ذلك على الدوام إلى سبب واحد لا يتبدل هو أن الجمال خاصة «اضفية» ، على هذا الشىء . فإذا افتقد خاصة الجمال فذلك لأن خاصة الجمال قد انصرفت عنه . وتعبير آخر أن الشىء الجميل قد اكتسب جماله ، ثم هو يحتفظ بهذا الطابع الجميل ما دام يساهم فى فكرة الجمال ، وكذلك

يكتسب الشكل الهندسى طوابع المثلث ما دام « مشتقا » من صورة المثلث الكلى ، وطالما بقيت هذه الصلة يديه وبين الكلى ، والجمال — أو الجميل كما تعبر اللغة الإغريقية — والمثلث وأشباهاها ، هى ما يبرعه هذا المذهب « بالصور ، أو « الأنماط » (eide, ideai)^(١) والشئ هو ما هو عليه ، وفيه الخصائص التى فيه ، لأنه يسام فى المثل ، التى هو مشتق منها . وثمة اللقط الهامة الآتية حول هذه الصور .

١ — الموجودات المادية التى « تسام » فى هذه الصور السكلية (السكليات) كلها زائلة ، فهى تحدث وتفق ، ولكن الصورة الكاملة . الجمال المثلث . الخ ، لا تحدث ولا تفنى ، وإماما هى على وجه التحديد ما يسميه الدكتور هوارتيد « شيئا أبديا » .

٢ — الأشياء التى ندركها بحواسنا « تأخذ بنصيب » من الصورة السكلية أو « تشابهها » فقط مشابهة غير كاملة . فنحن لا نرى قط عصا مستقيمة تمام الاستقامة بغير عوج ، أو رفعة مثانة الشكل تماما ومضبوطة ضبطاً كاملا ، وربما لا نصادف قط عملا عادلا عدالة كاملة . وإنما نرى فقط عصيا قريبة من الاستواء ، ورقعا قريبة من الشكل المثلث ، ونصادف أعمالا قريبة من العدالة ولكن « الخط المستقيم » أو « المثلث » اللذين

(١) ولكن من الخطأ الممال أن ندعوها — كما سميت طويلا — « بأفكار Ideas » فإن هذا يوحي إلينا بأنها « أفكار » شخص ما ، « أفكار قاعة فى رأس شخص معين » . وهذا هو وعلى وجه التحديد ما لم تكن النظرية تقصد إليه .

يحدثنا عنهما عالم الهندسة كاملا الاستقامة أو التثلك ، والعدالة التي يحدثنا عنها رجل الأخلاق على أنها واجب ، هي عدالة كاملة .

٣ - الأشياء التي تأخذ بنصيب من الصورة الكلية قد تكون كثيرة بغير حد ، ولكن الصورة ذاتها واحدة فقط . وحتى في الهندسة ، حيث نتحدث عن مثلثات كثيرة ، المفروض فيها كلها أن تكون مثلثات كاملة ، فليس ما يسمى عالم الهندسة إلى إثباته هو خصائص هذا المثلث أو ذاك ، وإنما خصائص « ال » ، مثلث بصفة عامة . ^(١) والموضوع الذي نتحدث عنه في العلم هو دائما « الصورة » الكلية وليس هذا الشيء أو ذاك الشيء الذي يأخذ بنصيب من هذه الصورة الكلية . فإنا « أعرف » ، كحقيقة علمية أن مجموع أي ضلعين في المثلث أكبر من الضلع الثالث . ولكنني لا « أعرف » أن مجموع ضلعين في هذا المثلث الموجود أمامي لا بد أن يكون أكبر من الضلع الثالث لأنني لا « أعرف » ، أن هذا المثلث الموجود أمامي مثلك الشكل حقا .

ولاشك أننا نحب أن نعرف - إذا استطعنا - مزيداً من المعلومات عن هذه الصور الكلية . أي الأشياء مشتق من هذه الصورة الكلية (أو مرده إلى صور كلية) . . (ومن ثم : أي الأشياء يمكن أن يكون لنابه معرفة علمية ؟) ثم : هل تخضع هذه الصور الكلية لنظرية تنظمها

(١) نجد ذلك بصورة شائعة في اللغة ، فمثلاً نجد الهندسة تتحدث عن « ال » معادلة المساوية للدائرة ، وعلم الحساب يتحدث عن « ال » عدد ستة .

جميعاً ؟ ، نستطيع أن ندرك من إشارات أرسطو الجدلية أن أكاديمية أفلاطون كان لديها في تاريخ متأخر أجوبة لهذه الأسئلة وإن تكن لا تتسق معها في جميع الحالات ، وأن أرسطو وجد هذه الإجابات كلها غير مرضية . ولكننا لسنا في حاجة لأن نعود فقراً في محاوره فيدون توضيحات الفكرة كتبها أفلاطون في سن متأخرة ، بل إننا قد نشك في أن أفلاطون في « الجمهورية » كان — على غير وعى منه — « يلون » صورة سقراط بأكثر مما يعرف ، كلما تقدم في عرض القضية . فن الأمثلة الواردة في محاوره فيدون ذاتها يبدو أن الذي كان يشغل تفكير سقراط بصفة رئيسية هو — من جانب — الأشياء التي يستطيع الرياضي أن يعرفها تعريفاً دقيقاً في الهندسة والحساب ، ومن جانب آخر ، المقاييس والمعايير المثالية لرجل الأخلاق (الم عدد ٣ — الم مثلث — الم عادل ، وما شابه ذلك) والذي يثبت لنا هذه الفكرة هو المحاورات التي كتبها أفلاطون في مرحلة متأخرة من كتابته ، وهي محاوره « پارمنيدس » التي يفسر فيها سقراط نظريته للفيلسوفين الإيليين پارمنيدس وزيتون ، ويدافع عنها — بفهم نجاح كبير — إزاء ما يوجهانه إليها من نقد . ويمرر أفلاطون على لسانه ^(١) هناك أنه يحس أنه على يقين من أن هناك صوراً كلية لأمور مثل « المشابهة وعدم المفاجأة » و « الوحدة » و « التعدد » و « العدل » و « الخير » ولكنه يشك كثيراً في وجود صور « الإنسان » و « النار » و « الماء » ، وهو أكثر شكا في أمر

«الشعر، و«الطين، و«القدر، والواقع أنه واثق من قضيته فيما يتعلق بالرياضيات والأخلاقيات، ولكنه شديد الشك في صور كلية الموجودات المادية، ونستطيع أن نستنتج من ذلك أن الدافع الأول لتكوين النظرية قد جاء من التفكير في الحقائق الرياضية والخلقية، وهذا ما ينبغي أن نتوقعه إذا كان المذهب قد نشأ أصلاً عن طريق سقراط، وإذا كان سقراط هو الرجل الذى يصوره أفلاطون والاصطلاحات المستخدمة ذاتها تبدو أنها مأخوذة بادی ذی بدء من رياضيات الفيشاغوريين . فهناك برهان كاف على أن كلمة (eidos) كانت هي الاسم الفيشاغورى القديم لكلمة «شكل، وهو معنى من معانى اللفظ يسود استخدامه في عبارات تبلورت في صورة مصطلحات عند إقليدس وغيره من علماء الهندسة في القرن الثالث على الرغم من أن لفظتهم المعتادة التى يعبرون بها عن معنى «الشكل، هي لفظة مختلفة (schema) ^(١) وكثيراً ما يصور أفلاطون سقراط معبراً عن شعوره العميق بالحاجة إلى مقاييس خلقية يمكن بها حسم الخلاف حول الصواب والخطأ، كما يحسم النزاع حول المساحة أو الحجم بالرجوع إلى الهندسة، أو الخلاف حول الوزن بالرجوع إلى الميزان : ونحن نرى أن هذه النظرية كانت محاولة أولى لإعطاء عامل «القبليّة، في المعرفة مكانه الحق، وهو ما تتميز به قضايا الرياضيّة البحتة وقضايا

(١) هذا اعني ذاته لكلمة Patterns (أنماط) يفسر طريقة التعبير (لإنجليزية) عن أشكال الكلام (أى الصور البلاغية) : Figures of speech وأشكال القياس . Figures of syllogism

الأخلاق البهتة من « ضرورة » و « شمول » وهما ما تتميز به المعرفة العلمية، وأن هاتين الدراستين من المعرفة مأخوذتان كنموذج لما ينبغي أن يسير عليه العلم كله . ومن هنا نفهم لماذا كان الفلاسفة المتأخرون يطالبون بين « الصور » وبين « الكليات » و « التصورات العقلية » و « المفاهيم الدالة على فئات » . ولكن الحديث عنها على هذا النحو يتضمن في الحقيقة تحريفاً تاريخياً بالنسبة لفكرة كانت أبسط من ذلك للتعميد، ويجعل سقراط يتحدث كما يتحدث أرسطو أو كانت ، ولا نستطيع أن نفعل ذلك دون الوقوع في سوء الفهم ، ولو أن مذهب سقراط هو الأصل الأول لأفكارهما . فإذا أردنا أن نتجنب كل هذه الانحرافات في الفهم فالأفضل أن نقول ببساطة إن « الصورة » — مهما تكن دلالتها — هي التي نشير إليها كلما استخدمنا « اسماً عاماً ، ذا دلالة » موضوعاً في قضية منطقية صادقة كل الصدق فهو الشيء الذي يصدق عليه الحكم في مثل هذه القضية . وهذه الأشياء — لا الأشياء المحسنة التي تكشف عنها وسائل الإدراك الجسدية — هي ، حسبما يرى سقراط ، أكثر الأشياء حقيقة ، والأشياء الوحيدة ذات الحقيقة الكاملة والروح — كما رأينا — لها فاعلية واحدة رئيسية ، هي « معرفة » الحقائق كما هي في حقيقتها ، ولا تتم هذه الفاعلية بنجاح إلا بمعرفة « الصور » . فإذا لم يكن العقل في حالة معاينة مباشرة لهذه الصور فإننا نحصل فقط على « رأى » أو « اعتقاد » اعتقاد قد يكون بطبيعة الحال كافياً في حالات كثيرة لاحتياجات الحياة

اليومية ، ولكننا لا نحصل على المعرفة ، لأن عنصر الارتباط «الضروري» غير موجود .

هل تكون الصور — التي هي الأهداف الصحيحة للمعرفة الحقة — وحدة منظمة أو فسقا؟ إنه ينبغي لها أن تكون كذلك بلا شك ، ما دام النسق الذي ينتظم هذه الصور كلها — كما جاء في محاوره فيدون — بوصفها تفسير ، لحدوث الأشياء وفنائها ، إنما وحي إلينا به من اعتقاد أرسخ جذورا ، يقضي بأنه في العالم الذي يسرى العقل في ثناياه ، تكون كل الأشياء منظمة على أفضل وضع يمكن أن تكون عليه ، ويكون «الخير» — وهو نفسه «صورة» — هو السبب الذي يفسر هذا النظام كله . وهذا يتفق اتفاقا دقيقا مع فكرة شهيرة في الجمهورية ،^(١) حيث يتحدث سقراط عن «الخير» أو «صورة» ، على أنها تحتل في عالم الصور التي يدركها الفكر نفس المكانة المركزية العليا التي تحتلها «سليتها» الشمس في العالم المرئي ، وكما أن الشمس في العالم المرئي هي الحياة بالنسبة للأشياء التي نراها ، والنور الذي نراها به في نفس الوقت ، فكذلك الخير في العالم الذي يدركه الفكر هو مصدر الحقيقة بالنسبة للصور التي ندركها ، وإداة المعرفة التي ندركها به . وكما أن الشمس — رغم أنها مصدر النور والنمو — ليست هي نفسها نوراً ولا نمواً ، فكذلك الخير ، لا هو «الوجود» ولا «المعرفة» ، بل شيء آخر يسمو عليهما معا ، ويكون مصدراً لهما . ولكن يُجرى على لسان سقراط كلام

يعترف فيه بأنه إذا كان جبروت الإبصار المادى هو استطاعته أن يحدق في الشمس ، فكذلك يتجلى جبروت العقل في أشق مهمة له وهي معرفة الخير . وهو ذاته في هذه الفقرة يعترف بعجزه عن الحديث عنه بأية لغة غير لغة المجاز والأمثال . وقد جرى الظن على أن أفلاطون في هذه الفقرة يتحدث عن تأملات ذاتية خاصة به هو ، لم يحلم بها قط ، أستاذه ، الذى يستعير صوته في محاوراته . والسكنى بالنظر إلى الصلة الوثيقة القائمة في صفحات « السيرة الذاتية » من محاوره فيدون بين « الفرض » الخاص « بالصور » ، والاعتقاد بأن الخير هو السبب السكى ، أجد من الصعب أن أوافق على هذا الرأى ، وإنما أنا أميل إلى الاعتقاد بأن لغة هذه الفقرات ذات الرواء والفتخامة ، وما فيها من صور بلاغية ، هي لغة أفلاطون في زهرة شبابه ، ولكن الذى استلزم هذا التفكير هو التأمل الذى جاء نتيجة الاصطدام الأول بكتاب أنكساغورس . ومن الواضح أن مذهب « الصور » ، في شكله الذى ينبئ — كما أعتقد — أن نوطن نفوسنا على نسبته إلى سقراط ، يخلق صعوبات كما أنه يزيلها ، فهو بصفة خاصة يترك بلا أدنى شرح مسألة العلاقة بين « الصورة » والواقع المحسوس الذى يدعوه « حضور الصورة » ، أو « المشاركة فيها » . هل ما نسميه بالشيء المحسوس هو مجرد جمع وبقى لمزاج من هذه « الصور » أو « الكليات » ؟ وإذا كان أكثر من ذلك فأى شيء آخر هو ؟ إن أحدا لم يبرز هذه الصعوبات بصورة قاطعة كما فعل أفلاطون نفسه في محاورته پارمينيدس ، ويبدولى من الواضح على الأقل أن الصورة النهائية لتعاليم

أفلاطون نفسه — التي ينبغي علينا أن نعيد بناءها بشكل غير مكتمل من الإشارات المحيرة التي وردت في كتابات أرسطو — كانت محاولة للعشور على جواب لهذه المشكلة . أما أرسطو نفسه فقد حيرته النتائج إلى حد أنه وصل إلى معالجة مذهب الصور ذاته على أنه محاولة مخطئة لفصل (الصفات الكلية) للأشياء المفردة المحسوسة عن الأشياء ذاتها ، ثم إقامة هذه المجردات ، كجموعة ثانية من الأشياء التي لا يدركها الحس ، والتي تنتج بطريقة ما الأشياء التي نراها ، ونعرض لدراستها أو علاجها . إن الأمر — كما يقول — كما لو أن إنسانا عليه أن يحصى عددا من الأدوات ، فيتخيل أن عليه أن يبدأ بمضاعفتها . وقد ظن أنه قد تخلص إلى الأبد من مشكلة غير حقيقية وغير قابلة للحل ، عن طريق قانونه الذي يقضي بأن الصورة ، لا توجد إلا في ، الشيء المفرد المحسوس ، وهو « صفتها الأساسية » . ولكن المشكلة مع ذلك ما تزال ماثلة أمامنا على الرغم من أرسطو ، كمعقدة حقيقية تعترض كل ما بذله أخيرا لإيجاد فلسفة للألوم . فما تزال نجد أنفسنا في حاجة لأن نسأل : ماهو التكيف العلمي الدقيق لمركز الموجودات المادية من عالم المعرفة ؟ بل « ماهي ، الأشياء التي يتحدث عنها عالم الرياضة وعالم الطبيعة ؟ أو مرة أخرى : ماهو (المثل الأعلى) الأخلاقي ؟ وماهي العلاقة بين خواص الأشياء التي يعرض لدراستها العلم والأشياء التي نلصقها أو نراها ؟ ثم كيف تقوم الصلة بين « القيمة » ، و « الواقع » ؟ وما تزال الفلسفة الطبيعية والأخلاقية بعيدة عن إجابة هذه الأسئلة إجابة قاطعة ، وهي أبعد من

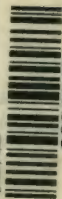
أن نستطيع الحرب من ضرورة سؤالها . وتتجلى عظمة سقراط الفذ في أنه كان أول رجل في العالم أبرزها بفهم واضح لما يفعل .

• • •

وقد ظل كثير من رفقاء سقراط نشيطين بعد موته ، كرؤساء لمذاهب فلسفية ، وكان لأحدكم وهو أنتستانس Anthasthenes إنتاج فلسفي ضخم . وقد اعتاد الناس الحديث عن هؤلاء الرجال وأتباعهم على أنهم (سقراطيون صغار) . ولكني أرى أنه من المشكوك فيه جداً أن يكون لهذا التعبير الذي يعكس طريقة العصر الإسكندري المصطنعة في كتابة التراجم ما يبرره . إن معارضى أرسطو الميغاريين في القرن الرابع ومعارضهم ديوجين والشواذ الآخرين الذين أطلق عليهم العامة لقب الكلبين Cynics والأخلاقين من قورينا الداهين إلى مذهب اللذة في القرن الثالث ، قد انتسبوا إلى سقراط عن طريق إقليدس وأنتستانس وأريستيبوس على التوالي . ولكن ليس هناك ما يدل على وجود مدرسة (قورينائية) قبل عصر خلفاء الإسكندر . والميغاريون الذين كانوا مهاجرين أشداء لأرسطو كانوا يتخذون وجهات نظر لا يمكن التوفيق بينها وبين الواحدة الصارمة التي تنسبها المراجع كلها التي بين أيدينا إلى إقليدس ، وعلى الرغم من أن ديوجين ومقلديه أظهروا احتراماً عظيماً لأنتستانس ، فليس من الواضح أنهم اعتبروا أنفسهم بأية صورة من الصور متصلين به بوصفه (مؤسساً) لمدرستهم . كما أن إقليدس

أريستيبوس وأنتستانس كانوا كلهم أقرب إلى الأصدقاء المعجبين
بسقراط منهم إلى (تلاميذه) . وقد كانت نظريات إقليدس ميراثا مباشرا
عن الإيليين ، وقد انفق الرأي على أن أريستيبوس لم تمكن له نظريات
فلسفية على الإطلاق . أما النظريات المتناقضة التي يذكر بها أنتستانس
بصفة رئيسية وإنكاره لإمكان وجود التنافس وما أشبه ذلك ، فلم يكن
مصدرها سقراط بل (السوفسطائيون) فبالنسبة إلى كل ما هو ذو شأن
نقول إنه لم يكن لسقراط سوى (خليفة) واحد — هو أفلاطون .

بائنة العامة
Bibliotheca Alexandrina



0284218

باب
الأدارة ١
بوزارة

المن
٧٥ مليا